أقحوانُ الملائكة....

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الإلكتروني

E ـmail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي

فراس فائق دياب

أقحوانُ الملائكة....

منشورات اتّحاد الكتّاب العرب
دمشق

سلسلة القصة (3)
2021

الإهداء

إلى

فايزة

رفيقتي في الطّريق الصّعب

والتجربة المُرَّة

فراس

المُهر الهوائيّ

اسمي **نسرين** أعمل في مكتب للتنضيد...

جاءني أحدهم وأعطاني مخطوطاً وسألني متى أنتهي من طباعته، فأجبته تعال بعد أسبوع...

وضعتُ المخطوط على رفٍّ جانبيٍّ وتابعتُ عملي الرّوتيني في تنضيد بعض المحاضرات الجامعيّة، وفي اليوم التالي أتيتُ مبكّرةً إلى المكتب... لم يكن فيه إلاّ زميلتي **دلال** وملقّنتي فايزة.

صعدتُ الدّرَج وجلستُ خلفَ الحاسوب. تناولتُ المخطوط وبدأتُ بتنضيده:

(ملكة يافا ـ قصة أسطوريّة)

فايزة تلقّنني:

أنثى قادمة، ترتدي بنطالاً من الجينز وكنزة مزركشة بمختلف الألوان، إنها في غاية الجمال، تشبه سماءً فيها أقمار بيضاء وحمراء وبرتقاليّة، وصدرها أبيض مزخرفٌ بخطوط خضراء كأنّها نوافذ تقول للمحيط: صباح الخير....!

بريقٌ أتعبَ عينيَّ.... أوقفي التلقين يا فايزة وأحضري لي فنجاناً من القهوة.. نفسي تحدِّثني:

يا إلهي عندي الكنزة ذاتها، ربما أكونُ أنا... لا أدري ما الذي حلَّ بي عندما كتبتُ هذه الكلمات على شاشة الحاسوب، شعرتُ أنّني بدأتُ أغيب عن الوعي...(....) أصحو على صوت فايزة أروي لها ما حصل:

فايزة بدت مدهوشة قالت: إنّه حلم غريب يا **نسرين..**

دلال تحدث ضجيجاً في المكان... الحاسوب يتباطأ وكأنَّ فيروساً دخل الملفّ... لم يبقَ من الوقت ما يكفي لإنهاء العمل.. (هيا يا **دلال** يا **فايزة** سنغادر...).

في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى المكتب متأخّرة... كان الحاسوب أمامي مثلَ كتلةٍ حجريّة. أضاء عندما رفعت القاطع الكهربائيّ... كان ملفّ **ملكة يافا** بانتظاري.. قلبي ينبض بسرعة... **صاحب المخطوط** سيحضر الآن... إنّه هو..

-أين **نسرين**...؟!

أنظر إليهِ بشيءٍ من الخوف... تتسارع نبضات قلبي...

-هل انتهيتِ من طباعة الرّواية.. لا تقولي غير ذلك... لا تحتجّي بالكهرباء وبالمحاضرات الجامعيّة... لن أقبل أي عذرٍ للتأخير.

كان **صاحب المخطوط** يمطرني بالأسئلة والاستفسارات عن عمله... أنظرُ إلى شاشة الحاسوب... خطأ في النظام.

أخرجُ من وراء الطّاولة وأصعدُ الدّرج بسرعة إلى الحاسوب العلويّ... **صاحب المخطوط** يجلس وراء الطّاولة كأنّه صاحب المكتب... **دلال** تحضر القهوة... الحاسوب يعمل.. أنظر إلى **صاحب**

المخطوط من نافذة السّفيفة. إنّه يأخذ قلماً وورقة ويكتب... ربّما يريد أن يضيف كلاماً جديداً للرّواية... دلال إلى جانبه... ستخبرني بما يجري... إنّها تهرع نحوي... أسألها:

-ماذا يكتب..؟

أجابتني قائلة:

-القلم يدور بين أصابعه ويتحرّكُ على الأسطر البيض:

(أنا ذاهب إلى البحر... تابعي العمل..)

.....

لقد ذكّرني بالبحر... البحر الذي لم أره منذ عشر سنين... تُرى كيف أصبح شكله...؟! كيف أمسى...؟! هل مازال فيه ماء..؟! أم أنّه جفَّ كما جفَّت أيّامنا...؟!

متعبة أغادر المكتب إلى منزلي. تستقبلني أمي هاشّة باشّه:

-عمّك منصور كان عندنا... جهّزي نفسك للسفر إلى البحر في الأسبوع المقبل.

-إنّه خبر جميل يا أمّي، تستأهلين عليه قبلة...

-اضحكي عليّ...

أودّعها وأركبُ الحافلة إلى منزل **دلال**، أصعدُ الدّرج إلى الطابق الرّابع ويغلب عليَّ التّعب.

دلال تستقبلني هاشّةً باشّة:

-**نسرين** في بيتنا...!! يا مرحباً... يا مرحباً..

-أنا في عجلةٍ من أمري سأذهب إلى البحر.

-أنا لا أصدّق أنّك ستذهبين إلى البحر. كم دعوتكِ دون أن تستجيبي.

-نعم... هذه المرّة سأستجيب.

-سأتّصل بفايزة لتكون معنا في هذه الجلسة.

-لا... لا... أنا في عجلةٍ من أمري...

-إن فايزة طيبة ووفيّة..

-لم أقل غير ذلك... ما يزعجني هو غيابها المتكرر عن المكتب وهي كما تعلمين ذراعي اليمنى.

دلال تفتح (الجرّار) وتخرج الكثير من ألبسة البحر.

-حسناً... اختاري ما يعجبكِ ريثما أحضّر القهوة.

أنظر بدهشة إلى الألبسة المتنوّعة وأحسبها ألبسة أطفال.. **دلال** تعود بالقهوة.. أبتسم:

-إنها ألبسة أطفال.

-لا... إنها مطّاطة تستوعب اثنتين مثلكِ.. خذي هذا الثوب البنفسجي، إنه جميل وهو من إنتاج روسيا الباردة... على أيّة حال خذي كلّ هذه الألبسة واختاري ما يناسبكِ.

-الوقت أصبح متأخّراً... الساعة الحادية عشرة ليلاً.. أنا في عجلةٍ من أمري، يجب أن أعود إلى المنزل بسرعة، قد لا أجدُ حافلةً تقلُّني.. الناس هنا ينامون باكراً.

الظّلام يسرع إلى المدينة... أحثُّ الخطا وأتحدّث مع نفسي: كأنّني سأسبح لأول مرّة... **دلال** تذهب إلى البحر في كلِّ عامٍ مع عائلتها وأنا رفضتُ العائلة. لقد رفضتُ (مأمون) المتزمّت الذي يحيلني إلى بلهاء بتفاصيله الصّغيرة. أذكر عندما قدّمتُ له القهوة كان شديد الانتقاد... (عليكِ أن تبدئي من اليمين إلى اليسار..) الحمد لله أنني لم أرتبط بهذه العقليّة العجفاء، أنا غير نادمة... ثمَّ سائق (السّوزوكي).. إنّ عينيه تشعّانِ بالرّغبة، والدتي دائماً تحاول التّخلص مني ربما هو حُبّها الزّائد وقلقها المستمر على مستقبلي...

الوقت مضى سريعاً وأنا أصل إلى منزلي... أمّي كانت مستيقظة.

-لماذا تأخّرتِ...؟! عمّكِ سيمرُّ في الخامسة صباحاً... كوني مستعدّة... لا نريد أن نزعج الجوار بالضّجيج.

-حسناً... أنا جاهزة...

ظللتُ قلقة طوال الليل. كلّما سمعتُ صوت سيّارة قلتُ جاء عمّي.. هكذا حتى السّاعة السّابعة.

لقد تأخّر عمّي ساعتين عن الموعد.. صعدتُ السيّارة وأنا شبه نائمة، طارت فرحة الرّحلة وكأنّني ذاهبة ذهابي اليوميّ إلى المكتب..

استسلمتُ للنّوم ولم أستيقظ إلاّ عندما وصلنا إلى الشّاطئ.. كانت رائحة العفونة تفوح من باب (الشّاليه). خصّني عمّي بغرفةٍ جانبيّة، دخلتُ إليها وكأنّني أدخلُ إلى غرفةٍ في المشفى، ثياب البحر نائمة في الحقيبة.. أبدأ بخلع ملابسي أمام المرآة... أشرع

بارتداء (المايوه) الزّهري.. بدا جسمي غريباً في غابةٍ بلا أزهار... خلال وقت قصير بدّلت كلّ الثياب التي في الحقيبة، ثمّ ارتديت ملابسي... خرجتُ إلى الشّاطئ.. كانت الشّمس الضّبابيّة تغطّي البحر... ربّما لن أسبح في هذا النهار.

جلستُ على الكرسيّ ساهمةً.. كيف لكلِّ هؤلاء المصطافين أن يروا جسمي؟! سأسبح عند هبوط الظّلام أو في الصّباح الباكر.. الأطفال يتجمّعون أمامي ويبدؤون اللعب. إنّهم يشدّون الكرسيّ الذي أجلس عليه. ربّما يريدون أن يسلبوني أحلامي.

المساء بدأ يجتاح الشّاطئ. عمّي ينادي: تعالي إلى العشاء يا **نسرين**.. صرخت زوجة عمّي: تأخّرنا كثيراً.. وأضعنا يومنا في تنظيف (الشّاليه)... زوجة عمّي دخلت في سجالات طويلة حول ما جرى في الرحلة، لم أكن أشارك فيها، كنت شاردة...

إنني أشعرُ بمعركةٍ قادمةٍ مع هذا البحر.. عمّي يقترب منّي ويوقظ شرودي:

-لماذا لم تسبحي يا **نسرين**..؟!

-سأسبح في الليل يا عمّاه.

-السّباحة في الليل خطرة.. هناك قناديل البحر، سيصاب جسمكِ (بالأكزيما)..

-.....

-أنا ذاهب إلى (الشّاليه)... هل تريدين شيئاً من هناك؟

-شكراً.

الساعة شارفت العاشرة... المصطافون انفضّوا وتركوا البحر يتيماً. من الأنسب أن أرتدي (المايوه) الفوسفوري.. إنّه جميل ويحدّد مكاني في البحر.

كنتُ شاردة، وأنا أتجّه إلى الماء رأيت في البحر مذنّباً ثمَّ انتشر الدّخان ما بين السماء والبحر.. كأنّها أحلامي العالية.. رحتُ أسبح برفقةِ المهر الهوائي.. إنّه لعبتي منذ الطفولة.. وكان في عنقه جرسٌ حديديّ صغير يصدر صوتاً مذعوراً عندما تعلو الأمواج.

أين تجوّلتُ..؟ أيُّ يدٍ تمتدُّ نحوي وأنا في خضمِّ الموج، أحاول أن أتجاوز السّفن الغارقة في داخلي... كان هذا المهر ومازال إلى اليوم يحرس نومي من الأحلام المزعجة.. كنتُ في طفولتي أخاطبهُ ككائنٍ حيّ.. أدسُّهُ تحت اللّحاف.. في انتظار طفولتي الأخرى.

كان الماء دافئاً حانياً وأرضيّة الشاطئ ناعمة.. لقد قطعتُ مسافة بعيدة ولم أشعر بالتّعب، لكنَّ الظلام منعني من تحديد الاتّجاه.. أخذني البحر بعيداً... ربّما استجاب اللّه لدعاء أمّي.. يجب أن أحتفظ بطاقتي قدر الإمكان، سأهتدي برهبان التّيبت، سأتحكّم بنبض قلبي... بدأتُ بالاسترخاء التّام... يداي تتلمّسان الصّخر.. ربّما وصلت جزيرة مهجورة. خرجتُ إلى اليابسة.. المذنّب يضيء المكان، جسدي تحتفلُ به الصّخور...

[مرحباً... مرحباً أيّتها الملكة... إنّه يحمل المشعل ويمشي أمامي باتّجاه قصرٍ بعيد. الجنود يصطفّون عن يميني ويساري... الطّنافس الحمراء تمتدُّ أمامي إلى قاعة العرش:

-الملك المعظّم يرحّبُ بي.

على كرسيٍّ العرش كنتُ أجلس... العيون شاخصة نحوي.

-هل أحضرُ لك الطعام يا مولاتي..؟

-نعم أنا جائعة.

بسرعة البرق أطباق الطّعام تصطفُّ أمامي على منضدة طويلة. الملك يأمر بإقامة الاحتفالات... المشاعل تُوقَد في كلِّ مكان. بدأتُ ألتهم الطّعام بشراهة، لقد كان طعاماً غريباً لم أتذوَّقه من قَبل.. لكنّني جائعة.

إحداهنَّ تدخلُ القصر مسرعةً:

-مولاي صاحب المخطوط... مولاتي (يافا)... النّار تجتاحُ المملكة.

الملك صاحب المخطوط يحملني إلى خارج القصر.. النّار في كلّ مكان.. مملكة الجزيرة مشتعلة بالكامل... النار كادت تحرقني لولا الملك صاحب المخطوط... لقد رمى بي إلى البحر.. كان البحر هادئاً شبه مُضاء...]

عاودتُ السّباحة برفقة المهر الهوائيّ إلى أن وصلت الشّاطئ... كنتُ منهكةً تماماً... كان جمهور المصطافين وفرق الدفاع المحلّي في انتظاري.. أحدهم حملني إلى سيّارة الإسعاف.. صحوتُ في المشفى وإلى جانبي عمّي وزوجته. لقد رآني الجميع بثوب البحر الفوسفوريِّ... مضى أسبوع الاصطياف بسرعة... لقد تسبّبت لعمّي وللدّولة بالكثير من المتاعب... لكنّ صحّتي جيّدة.

برفقة المهر الهوائيّ عدت إلى البيت الذي ينزل فيه المطر (الرّغد) على الأرملة الوحيدة بقربي الحارسة لميل جذعي... لضحكتي التي تتمزّق، أشفقُ على نفسي وعلى المهر الهوائي (ضرَّة أمي)، وأدعوها أن تذهب إلى المزار تؤدّي هناك صلوات النّفي لظلّي الثقيل.

غداً سأعود إلى المكتب... الآن سأغسلُ ثياب البحر.. سأردّها إلى **دلال**، لكنّي سأطلب منها (المايوه) الفوسفوريّ، سأحتفظُ به لنفسي...

في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى المكتب متأخّرة... ملقّنتي **فايزة** تأخّرت... كان الحاسوب أمامي مثل كتلةٍ حجريّةٍ... الكهرباء مقطوعة... أنادي **دلال**:

-**دلال**... **دلال**... تعالي واجلسي مكاني حتّى عودة التّيار الكهربائيّ... لن يستغرق ذلك زمناً طويلاً، حالما تعود الكهرباء، اضغطي على الزرّ وحرّكي (الفأرة) على ملفّ **صاحب المخطوط**.

-لماذا يا **نسرين**... إنّه ليس عملي... لديَّ الكثير من الكتب بحاجة إلى تجليد فنّي.

-أصبحتُ أخاف من رواية **ملكة يافا**.

-حسناً.... سأقوم عنك بهذه المهمّة عند عودة التّيار الكهربائيّ. خذي قسطاً من الرّاحة... سنتابع العمل أنا وفايزة.

الكهرباء تعود إلى الحاسوب... الشّاشة تضيء من جديد... تبدأ **دلال** بتحريك المفاتيح وتنادي فايزة:

-تفضّلي إلى مكانك يا خانوم... هيّا لقّنيني.

-حسناً، اكتبي:

-هـل أنـتِ غافيـة يـا مـولاتي...؟! لمـاذا تـركتني... الجميـع بانتظاركِ... الجيوش تنتظر الأوامـر... الأمـراء يصـطفّون مثل الأطفـال أمام جلالِ حضوركِ.. لقد عدتِ ملكة على كامل يافا الصّامدة.

أضافت نجمة:

-في غدٍ يدخلُ عام البياض... الجميع سيبكي.

-الجميع سيبكي بدموع اللؤلـؤ. إنّه عهدي الجديد.. أنـا يافـا القادمة من السّماء.

الحاسوب يهتزّ...

خطأ في النّظام...

أين الملكة..؟

العبارة تظهر وتغيب مثل (فلاش) الكاميرا.

- انظري يا فايزة.... انظري...

الصـورة باهتـة الألـوان، هبـاب الفحـم يغطّـي الشّاشـة ويمـلأ الطاولة...

-ماذا أفعل يا **دلال...** ماذا أفعل؟!..

-في الصباح تعود **نسرين** إلى المكتب وتتصرّف..

.....

الـورد يمـلأ الطاولـة احتفـالاً بعـودتي... أرتشـف القهـوة ثـم أفـتح الحاسوب.

أفتح ملفّ **ملكة يافا**، أحاول متابعة طباعة الرّواية... فجأةً تمتلئ الشّاشة بهذه العبارات الغريبة:

[تعالي.. تعالي.. أنا الذي أحبّكِ يا حبيبة الورق... يا حماقاتي العزيزة... أرمي إليكِ الثلوج العارية وأُوغلُ في الهروب البارد.. أسمّيكِ لغتي الشّقيّة وأكسر القالب..

أنا هو أنا: لديَّ نهاية العالم.

أنا لست أنا: أنتم لستم أنتم.

-ماذا تلقنينني يا فايزة..؟!

-الكلمات ليست من عندي، إنها موجودة في الرّواية.

-أيّة رواية هذه...؟! تابعي...

[أيتها الحمقاء: سأشرح لك كيف تدخلين بيضتي بسلام.. في المدينة الضيّقة مثل الحذاء حيث تكثر الأحلام، وفي الشارع الضيّق تمرّين في كلّ صباح.. ترتدين ثوباً مزيّناً بالنّوافذ، في البيت الصّغير الذي لا يتّسع لعقدة الإصبع؛ وحيداً أتفقّدكِ الآن.. أشدّكِ إلى صدري، أتفقّدُ أشجاري وأولاد الهضاب التي جاءت بأسمائي الخديجة.. كيف آوي إليك يا ملكة يافا وأنا مشرّد في غابة الأفكار الضّيقة التي تزنّر الوقت بالأحلام الكبيرة.. أيّتها الحمقاء ادخلي بيضتي قبل أن أدخل في مدار الهوس.. أضربُ الحجر بالحجر لتخرج شرارة خلقكِ وإيلاجكِ في هذا الكون، أظلُّ مستلقياً مثل كومة من التّراب، للتوّ قد انتهيت من تمسيجكِ وغسلت أصابعي من صلصالكِ الآدميّ، ثمّ أصابني الملل لأنّ النّار ظلّت في الكمون. بعد أن دخلتِ بيضتي واكتملتِ أمامي

ذبتُ شوقاً إليكِ وأنتِ تشغلين الظّلال وتؤلّفين بين كائنات الفضاء... لطالما راودتني التّوبة وأنا أرمي على عجلٍ أحلامي المطفأة.. قبل الخليقة كنتُ نقطة جوفاء تصفّر فيها الرّيح!.

-ما هذا يا فايزة..؟! بتُّ أخشى على نفسي... ما هذه الكلمات... هل هي من أصل الرّواية...؟!

-لا أدري ربما كان خطأً في (كرت الذّاكرة).

-**دلال... دلال...** أخبري زوجك أنّك ستتأخّرين هنا.

-لماذا..؟!

-أريدُ أن أنتهي من رواية **ملكة يافا** هذا اليوم، لقد جلبت لي الكثير.. الكثير من المتاعب.. هذا صنيع لا أنساه لكِ.

دلال تهزُّ رأسها موافقةً وهي تقوم بتوضيب (الملازم الورقيّة)..

- لقّنيني يا فايزة:

[-**حسناً... شكراً لك أيّها الحارس الطّيب.**

كان الفصلُ خريفيّاً ولعلَّ ما أدهشني أن شجرة المشمش ظلّت خضراء لم تتساقط أوراقها بعد، لم يداهمها الاصفرار الذي لوّن وجهي، أموت ولا ألتقي (يافا)، ولكنّ زيارة القلعة في كلّ يوم تجعلني أشمُّ رائحتها... لا أدري هل تبقى هذه الحاسّة سليمة؟!!

الزمن يعبثُ في جسدي.. باتَ وجهي مجعّداً... قامتي تتقلّص... حجمي باتَ صغيراً بطولِ طفلٍ حديث الولادة.. لا أدري أيّة لعنةٍ أصابتني.. جعلتني أتحجّر مثل تمثال طفلٍ صغير. هل هي لعنة الولادة.؟!!]

-ما هذا يا **نسرين**..؟!! كل ما تبقى هو أوراق بيض.

أُرْجِعُ الكرسيّ الدوّار إلى الخلف قليلاً... أشدّ كنزتي... تأخذني غبطةٌ مفاجئة، يأخذني حلمي إلى **يافا**... لا أشعر بالقلق... لا أحتاج فايزة...

... دخان البخور يملأ المكان... الكهنة يحملون أغصان الزيتون ويرتّلون... ألوان كنزتي تدخل فضاء المعبد.. الأخضر فوق نهديَّ... الأحمر يلفُّ خصري.. الأزرق ينسابُ إلى ظهري.. موسيقى العشب تعلو... الحرّاس منشغلون بي... أنا يافا... أنا يافا....

خارجاً الخيول تزمجر، تتحسس سائر أجزاء المملكة... سائر الأرض... حيث يعمّ الخراب وتتمزّق الزهور... يريدونني... لكنني تحجّرتُ بين جثث القوم... كأنني أكمل دورتي في انتظار العودة إلى عام البياض حيث يبدأ الضوء وترتفع قامتي... يزهو برتقالي...

صاحب المخطوط لم يعد يأتي إلى المكتب ليسأل عن روايته وكانت **دلال** قد أخبرتني أن أتصرَّف عندما يأتي لأنّه بالتّأكيد سيكون غاضباً جدّاً...

بتُّ أتعمَّدُ التأخير في المكتب، وكم كنتُ أتمنّى أن أنام بداخله ولا أذهب إلى المنزل لأسمع موشّحات أخي سلام وزوجته المتسلّطة عن المخلّص المنتظر والعنوسة القادمة..

آوي إلى النّوم في الغرفة الصغيرة حيث الجدران متقاربة... أتقلّب مثل ماء يغلي في قِدر... أحسب بالسنوات كم مضى من عمري الغارق في العمل والأحلام الهاربة... أقوم إلى الخزانة... أتفقّد جواز سفري،

أحضنه وأنام مثل مواطنة وديعة... تضع يدها اليمنى فوق اليد اليسرى مثل صلاةٍ أخيرة..

يدي اليسرى تُصيب شيئاً ما على المنضدة المجاورة للسرير... كأس الماء يقع إلى الأرض وتنتشر شظايا الزجاج في أرض الغرفة. أصحو مذعورة من الصوت... (الحمد لله، إنه حلم وليس حقيقة)... لم يبقَ من الليل ما يستحقّ النوم، الساعة تجاوزت الخامسة وأنا أنظر إلى (المهر) الصامت بقربي، إنّه ينهار... قدماه (تتجعلك)... رأسه ينحني... عيناه غائرتان... الهواء القديم بداخله يهرب... لابدّ من نفخه من جديد... لا... لا... لابدَّ من غسله بالماء والصابون حتى يعود النايلون إلى بياضه النّاصع..

متعبةٌ أنا، سأغادر باكراً هذا اليوم، أمشي بتثاقل إلى الحافلة السّقيمة، هي تنقلني مثل كومة من الرّمل... حيث تبدأ رحلتي في الشّرود.

-ألا تريدين أن تنزلي يا آنسة..؟

-ماذا..؟!

أصحو من شرودي في نهاية المدينة حيث لا عمران، لقد تجاوزت الحيّ.

-هل ستعود حافلتكَ إلى بداية الخط..؟

-نعم بالتّأكيد.

أصل إلى حيّنا... الأطفال في مقدمة الشارع ينتظرون صفّارة الحكم لبداية المباراة بكرة القدم... الأبواب مقفلة لا أحدَ يطلُّ من أي باب، أحدهم يقفُ جانباً ويتحدّث مع نفسه.

أدخل المنزل، أنظرُ في المرآة، وجهي رماديّ، إنه مزيجٌ من الكريم والحبر.. رائحتي مزيج من العرق والعطر الباهت.. عيني اليمنى تبدأ برفيفٍ مستمر... إبهامي الأيمن يتحرّك وحده.. في غرفتي أجلسُ فوق السّرير.. أُخرجُ أوراقاً بيضاً وأبدأُ بالكتابة... يجب ألاَّ أفكّر بما يجري وأن أشغل نفسي بالكتابة.. أيّة كتابة.؟ إنّها صعبة جداً.. كيف لي أن أُكمل رواية **ملكة يافا.**

... كثيراً ما كنتُ أنسى أين وضعتُ المفاتيح ثم أتذكّر بعد فوات الوقت، المفتاح في المزهريّة... المزهريّة على الرّف. الرّف فوق التلفاز وفوقه قطعة من الكرتون.. هي دفّة كتابٍ قديم كان لوالدي.. كثيراً ما كان يسقط الرّف وتسقط المزهريّة الفضيّة... تتبعثرُ أشيائي القديمة وتنبعث منها رائحة الغبار...

في صباحٍ ما أنفصل عن أبراجي الصغيرة وأمضي كخريف مقهور، لم يكن غريباً أن يسقط رأسي من فوق يدي.. لقد كان بقائي طويلاً، طويلاً، في ذكريات السّيول..

أستعرضُ نهاية الرّواية على الحاسوب:

الصورة باهتة فاقدة القدرة على أي تأثير يمكن أن يدخل في حركة العناصر للرواية المتوقّفة... أين أنتَ يا **صاحب المخطوط**..؟ ملامح النّهاية تقول أنّك تائهٌ في الصّحراء وأنتَ تبحثُ عن ملكتك الحبيبة **(يافا)**.. من أجلكَ فقط سأُكملُ الرّواية:

في الصحراء أمضي حيث يسكن العشّاق، حيث يبوحون بأسرارهم للرّمال، للغة الحلوة التي تغزو الليلَ بأشعّتها الجميلة، أستقلُّ الصّحراء الصّامتة الواقعة في شرك الاغتيال، إنّها اليابسة

المفتوحة على كلّ الاحتمالات، في كلّ خطوة أعدّ لي ضريحاً وأقول هنا أموت... هنا نبات (السّلماس) وهنا (الشّيح) يوشكُ أن يسيل.. هل سار النّاس هنا... هل عاشوا على هذه الأرض الملحيّة التي طالما عانت من خراب الزّاحفين.. هذا الرّمل المتمرّد الذي يتمشّى معي وأنا أراقب النّجوم العالقة بسماء الوجد.. هل أدقُّ أوتادي هنا أم هناك في صبابة الملح الحائر... هل أجد **(يافا)** داخل صدري الضّيق أم أجدها بين أمّي وأبي النّائمين في راحة الفضاء، وأنا أرصدُ جهتي كي أصل **(يافا)**... يجنح بي الحديث إلى اللا أحد.. في أيّ مكانٍ تختبئين يا **(يافا)**..؟

في أيّ سماءٍ ترقد النوافذ الملوّنة؟

أنا الآن وحيدة في الصّحراء المترامية، أنشد للبدويِّ المتبقّي في داخلي نشيد الحب المرّ؛ لشعبٍ غائب يتناسل في الرّمل ويضحّي بتويجاته؛ للسّماء اليتيمة التي ترفع إليها التقارير بين جيل وآخر، في المدن الفواحش التي هجّرت أبناءها رائحة الخبز المتقدّم..

أتسربل بين العقارب وتفوح من فمي رائحة السمّ، أبدأ الحكاية وأنا أواصل غربتي ومسيرتي الظّافرة..

تقعُ المملكة في الأرض البيضاء كما تقول الرواية.

هذه هي الأرض البيضاء... في وسطها وادٍ يشبه الفنجان... إنّها هنا حول (الوادي)، تحت هذه الرّمال الملحيّة.. أبدأ بالهبوط، فأرى ثقوباً دائريّة تدخلها الشّمس، إنها نوافذ كثيرة... مرّةً أخرى أتلمّس جسدي... أتلمّسُ نوافذي..

في النافذة الأولى تزكم أنفي رائحة النبيذ الأحمر.. أتّجهُ إلى النافذة الثانية فأسمع أصواتاً مختلفة... كأنهم يقيمون حفلة للصّفير... نافذة ثالثة تصعدُ منها رائحة العطور المختلفة..

نافذة رابعة: في وسط الوادي حيث يرقد الماء المتبقّي من الأعوام الخالية.. إنّ فيه طعم الحلاوة رغم أنّ المحيط غارق في الملح..

النافذة الخامسة: مغلقة... عليها يافطة صغيرة كُتب عليها (بانتظار أنثى جديدة).

أطلُّ إلى النافذة السادسة: أنثى تقرقع داخل حوض من البلور كأنّها سمكة، إنّها تستحمُّ عارية تماماً يرتفعُ فوق صدرها نهدان خضراوان وحولها شجرة صغيرة من الحور تلتمعُ أوراقها، إنّ شكلها غريب ربّما تكون من كامبوديا..

أطلُّ إلى النافذة السابعة: يدهنون الجماجم بالورنيش ويلصقون عليها حراشف الصّنوبر.

أطلُّ إلى النافذة الثامنة: إنّها مغلقة عليها يافطة صغيرة كُتب عليها (سنعود في عام البياض).

أطلُّ إلى النافذة التاسعة: هنا يطحنون العظام ويصنعون منها خبزاً للأمراء.

أطلُّ إلى النافذة العاشرة: أنظر إلى سجنٍ فيه صاحب الشّرطة يقهقه وهو يضرب السّجناء بالسّيف ويقطّع لحمهم والدّم يسيل تلعقه الأفاعي التي تملأ المكان.

أظنُّ أنّي أدرك الأشياء وإحساساتها وأنا أهيم في **(مملكة يافا)**، يغوصُ في أعماقي الملل وأنا أبحث عن مفاتيح الأشياء الممنوعة، رحلتي تنتهي على مهل في المتبقّي من عمري الذي تعبثُ فيه الرّياح.. أراه في تشكيلات أصابعي التي تحاول أن تتسلّل..

أنا هنا في وحدة الرّمل، في الاحتجاج على سكّان المدن البعيدة، في الأسماء التي لا معنى لها.. أرمي بطاقتي الشخصية وأمضي إلى شخوص الرّمل علَّ مطراً يحطُّ على هذه المفازة، علَّ حقلاً يشبُّ هنا أو هناك.. أيها الغيبُ السّحيق في الأماسي المتعبة.. إلى أين تمضي..؟ لغةٌ تعاودني... عشبٌ ما ينبتُ فوق جسدي.. إذ تستفيق الثلوج.. ويفيق النهر.. ربّما تأتي الغيوم المسائيّة.. أنظر.. هناك بحيرة الملح الرّاكدة يأخذها النوم... بالكاد أستطلع **(يافا)** التي يضيئها السّواد في عذابات ترجو الغد المشرق.. من يشيع العدل في الكلمات.. المحاصرون داخل النّوافذ لا يخرجون.. لا يردّون على صراخي..

من ينسيني **(يافا)**.. من يذكّرني ببقيّة النوافذ..؟ الشّمس تشرق صباح هذا اليوم على نوافذ جديدة..

النافذة 25 هنا.. يرقد السّجناء المعارضون.. إنّ شعورهم طويلة.. ذقونهم غير محلوقة.. إنّهم يدوّنون على الجدران بأصابعهم..

هل من نافذةٍ جميلة في هذا الصّباح..؟ هل قطعة من مطرٍ قديم.. لا طيور هنا..

ليس هنا إلاّكِ...

لستُ قدّيسة لتحصل لي معجزة ما... أنا واحدة من عامّة الشّعب... من عامّة العامّة... أيّها الزمن الدّاشر... لا تنقضِ حتّى ترى نوافذ **يافا** كاملة مضيئة.

آخ... آخ... ما هذا؟ لقد لدغني العقرب... السمّ يتغلغل في جسدي... **ايا صاحب المخطوط**... يا **صاحب المخطوط**... يا... أدركني... **سأقع في السّاعة**...

كيف سأنجو منها إذا سقطت فيها؟

المطارق تضرب في دماغي والطّبول تزمجرُ فرحةً بغربتي، الصّداع يزدادُ شدّةً.. الوردة البيضاء التي أهداني إيّاها **صاحب المخطوط** تسقط على الأرض... **سأقع بعد قليل في الساعة... صاحب المخطوط** ينهض أمامي من الوردة البيضاء... وأنا أتضاءل... أتضاءل وأغيبُ عن الوعي... لا أدري كم مرَّ من الوقت عليَّ وأنا في هذه الحالة... أتحسّسُ جسمي وأقوم منهكة... أرفع رأسي فأرى قبّةً بلّوريّةً تعانق المكان... ما هذا المكان العجيب..؟ أين أنا..؟ لستُ في بيتي... لستُ في غرفتي المحشوّة بالكتب والجرائد... كما أنّني لستُ في المكتب.. لا أسمع ضجيج الآلاتِ ولا صراخ دلال... ولا ضحك فايزة.

الأرضيّة مصقولة ناعمة تصلحُ للتزحلق عليها... والجدران خفيضة جداً ولا يوجد فيها أيّة نافذة أو باب.. لا يبدو أمامي سوى هذه القبّة الغريبة كأنّها قبّة سماء في ليلة مقمرة... أشعر بضيقٍ شديدٍ في تنفّسي.. أكادُ أختنق.. ما هذه الزنزانة الرّهيبة..؟! أين أنتَ يا **صاحب المخطوط**... أدركني... يا إلهي ما هذه المروحة الضخمة التي لا تكفُّ عن الدّوران... إنها تجبرني على خفض رأسي كلّما مرّت من فوقي... ما

هذه الذراع التي أجلس عليها... هل هي ذراع رافعة أم ماذا..؟

لم أفعل شيئاً لأحد.. ما الذي وضعني في هذا المأزق اللّعين..؟ إنني لا أستطيعُ تحريكَ جسمي النّحيل... يبدو أنّني مربوطة بشريطٍ خفيّ... أمّا هو فإنّه جالسٌ على الذّراع الطويلة يمسحُ خدّيه... يتنفّسُ في القبّة مثل سمكة هادئة...

إنّه يرصدني...

يمرُّ الزمان... تغيب الشّمس فوق القبّة الكروية... أين المفرّ يا **نسرين**..؟ أتنفّس ببطءٍ شديد...

جوف القبّة حارٌّ جداً... لا يرحم انتظاري الطّويل...

أنفاس **صاحب المخطوط** تقترب.. الذّراع القصيرة التي أتعلّق بها لا تبيحُ لي حريّة الحركة باليدين... إنّه يقترب... وجهي يلامس وجهه... يضحك...

-أين كنتَ يا **صاحب المخطوط..؟** ألا تعلم أنّكَ رمقي... حلمي الذي أحيا به...

-أنا هنا يا حبيبتي.. لا تبتئسي.. ما أبعدني عنكِ إلاّ الزّمن.

ثم أضاف: - هل نسيتِ اسمي؟ أنا شمدين.

قلتُ له بلهفة المشتاقة:

-أين نحن يا **شمدين ..؟** ما هذا الشّرك الذي نُصِبَ لنا..؟

-ألم تدركي بعد أنّنا **وقعنا في السّاعة..؟!!** صار الزّمن بيتنا... أحبّنا الزمن فحبسنا في ساعته.. إنّه بيتنا الهشّ... أخيراً وجدنا مكاناً للسّكن... هناك كنّا نتسوّل الفرح... هنا نوشي زماننا بأفراح اللقاء...

نحن هنا نبدأ العمرَ من أوّل خيوط الحبّ... إلى آخر الظّلمة الدّافئة... هناك ولدنا في زواريب الحجر... وهنا انتهينا... تهاويتِ هنا لتبقي معي... هيّا أيقظيني من سبات الزمن إلى ساحة الغرفة الخائفة... إننا نلتمع كالأشباح... أسمع صوت سقوط ما... **نسرين.. نسرين**.. لقد سقطتْ في ميناء السّاعة.

نسرين.. لا أستطيع مساعدتكِ.. هيا عودي إلى عقربك.. زمننا الحبيب سيوصلنا ذات ساعة إلى مدينتنا... نعم سنربط السّاعات والدّقائق والثواني بحبلٍ طويل... سأكلّلُ جسدك الجميل بالليمون... وأجعل لكِ قميصاً من البرتقال وكنزة من الكرز... وحذاءً من الخرنوب. سنلعب كرة القدم بالبرتقال... بالليمون... بكلِّ شيءٍ مكوَّرٍ يدور..

عودي إلى عقربك الكبير... إن هذا الزمن مضطرب... العقارب تهتزّ... عقرب السّاعات ثقيل جداً.

سأقوم بإصلاحه... هيا تسلّقي عقربكِ... لا يُستحسن أن نترك السّاعة... حتّى لا نبقى خارج الزمن، سنتسوّق فيما بعد من مدينتنا.. لا تدعي أيّة دقيقة تذهب سدىً... ستذهب من عمرنا. مشّطي شعرها.. ألبسيها ثيابك ولتبقي عارية.

ما هذا الجسد الفاتن..؟ لم أحلم في حياتي أن أراه... أن تمسح عيناي ضفّتيكِ الحلوتين... خصر القمر... هضبتكِ المرتفعة مثل جبل صغير.. وجهكِ قمر الزمن المريض..

هل انفضَّ السمر..؟!

حلّي مكاني... تسلّقي عقرب العمر الصغير.. هيّا.

-لا أستطيع إنّني ملتصقة بعقرب الدّقائق.

-حاولي الفكاك... أحسنتِ... اصعدي نحو عقرب الثواني. هيّا اركبي ظهري.. إنّكِ ترتفعين... هيّا تسلّقي.

كلّما أقول لك وداعاً تقولين إلى اللقاء..

-سنلتقي حالما تجمع الساعة ثوانيها.

- نحن عقربان ندور، نجرف في طريقنا الأحلام الميّتة.. والصّور المعلّقة على جدران الأكفّ اليانعة.. ننتظرُ اللقاء... لقاء العشّاق في كل مكان.

-حينما أبتعدُ عنكَ بعقربي الصغير يلاحقني بريق الكرز.. تطويني ابتسامتكَ فأغفو.. ثم أصحو من جديد على صداع فرحي.. أتقوقع.. أحلم أن تَرْتَفِعَ القبّة كي نلتصق بالسّماء الواسعة أعلو وأعلو... قامتي تتطاول... لا أجد متّسعاً لي..

أراكَ تتضاءل... تتضاءل..

أدخلُ في ضبابي... أرى الزجاج... قطار الأحلام المؤجلة، أهمسُ لها... **شمدين** هنا يلوّن الزمن.. يرشُّ العبير على الضّياء فتختلط الألوان. يمسحُ غبار الوقت عن الوجوه المتعبة.. يا **شمدين** عُدْ إلى زمني.

لا تدخل في دفاتر النسيان... لا تهرب..

لا تخطف فرحي..

إنّي أتضاءل... أتضاءل... أتعلّق بالعقرب.. أعود إليكَ..

ندور على محور الوهم.. شفرتان أنا وأنتَ.

نذبحُ هذا الوقت كلّما ابتعدنا.

نحن هنا في قبّة الساعة... تحت أطنانٍ من الهواء الخارجيّ الملوّث... نحن هنا لنا هواؤنا... ماؤنا الضّرير.. نحن هنا نمرُّ عبر عقربنا إلى الحياة.. سنتزوّج وننجب الدقائق والثواني الهاربة من عيون الجيل ونختصر اسمينا.. (أنا وأنتَ) ندور في فلك الاختبار... نتسابق... أتحسّسُ جسدي فوق العقرب الصّغير.. بعد ثوانٍ نلتقي.. يتّسعُ العقرب ويتّسع.. يصيرُ إلى كوكب حيث التّضاريس.. النّاس النّائمون يمشون على أصابعي. غولةً كبيرةً أُصبح وأغيّر طبيعة الأشياء.

أمدّ عقربي فألتقط الماء للبلاد العطشى.. الشّجر أنقله إلى الصّحراء والناس الزائدة عن الحاجة أهشّمها بدموعي.. أنت أقذفكَ نحو الشّبابيك البعيدة في انتظار الطّيوف خلف الجدران المقنّعة بالأُحجيات والطّلاسم. أنتَ تشرق في سماء العاشقين.. تغنّي للتّائهين... تعلنهم في كلّ الأمكنة.

عمري ثقيل... غولةً صغيرةً أصير.. أشعر أنّني أضيع... أتضاءل.. أعود إلى قبّة الساعة، أحسو السّاعات المنقرضة من عمر الكون.

دقيقة واحدة تكفي للّقاء... لا أريد أن ألتصق بكَ كثيراً.. كي لا يتغشّاكَ الصُّداع.. في اللقاء القادم بعد دقيقة لا تنسى أن تغمضَ لي عينيَّ..

العقرب الصغير يلتحم بأصابعي.. لا أستطيعُ تحريك جسمي الدّائر..

-لا تبتئسي يا **نسرين**... لم نخسر إلا الثياب التي تزوّر حقيقتنا..

-يا **شمدين**... فوضاكَ قد عمّت فضاء القبّة... بنطالكَ الكحليّ يسبح في الميناء.

- انتظري قليلاً... لن نلبسَ إلاّ من ثياب مدينتنا.. من قطنها المحروق.

-انتظر يا **شمدين** لأشرح لك كيف أقذفكَ إلى مدينتي مثل أرنب... هل تحبّني..؟ حسنٌ.. ستنامُ تحت أظافري... سأغطّيكَ بعينيَّ... وأضمّدُ جرحكَ بشفتيَّ.

لا تمطّ يدكَ كثيراً إلى جسدي... تمسَّك جيداً بعقربكَ السّاعي.

لا تخف... لن تموت من التّبغ والسّعال الأصفر... من وباء الكلمات.. أقذفك إلى محيطي مثل ضفدع... لا تستطيع كلّ الأفاعي أن تبتلعه..

-على رسلها تمشي الثواني فوق قبّتنا..

على خجلٍ تمشي الدّقائق... للمساء الغائر في تربة البعيد... قبّتي الصّابرة تمشي بعكس الطّريق..

نسرين... يا مطري البعيد... باشتياقي سأنسجُ ثوب زفافكِ الأحمر..

-لا أريده أحمر اللون ولكنني أريده أخضر كالغابات.

-بل سترتدينه أحمرَ اللون..

-بل أخضر..

-يا لكِ من عنيدة..

-يا لكَ من ثقيل..

-**نسرين** لا تحبّني... سأضيع... أضيع..

صداعي شديد... أين أنا... مازلتُ مربوطاً إلى العقرب الصغير... بشريطٍ خفيّ... القبّة هادئة... لا أرى شيئاً يعبر فوق رأسي..

نسرين... أين أنتِ..؟ هل أنتِ نائمة؟

كأنّني ألمحكِ متجمِّدةً على عقرب الثواني...

جسدكِ البلّوريّ مسجّىً بلا حراك...

هل تمزحينَ... تخلخلينَ الوقت...؟

أصرخُ متوجّسةً:

-يا **شمدين** .. أينَ أنتَ.. هل تسمعني؟!

-أنا هنا يا **نسرين**..

-لماذا لم نعُد نلتقي كلَّ دقيقة.. أما زلتَ غاضباً؟

-لا.. لقد توقَّفت الساعة.

-وماذا نفعل لكي نلتقي ثانيةً..؟

يجيبني بحزنٍ وغصّة:

-سنبقى ننتظر من يربط الزّنبرك...

فأقول له بحماسة شديدة:

-كفانا انتظاراً... لن ننتظر بعد الآن... سأخلّص نفسي من هذا العقرب.

لم يكن ما يربطني به إلاّ شريطٌ خفيٌّ.. وبعد عدّة محاولات تمكّنتُ من تحرير ذراعيَّ ثمّ تمكّنتُ من تحرير جسدي كلّه... تسلّقتُ العقرب الطّويل حيث كان مصلوباً... حرَّرتُه بسرعة.

قال بإصرار:

-يجب أن نخرج من هذه السّاعة التي استعبدتنا.

وقفنا معاً على العقرب الطّويل وبدأنا نضرب بقبضاتنا بلّورَ القُبّة نريد أن نحطّمها ونخرج من سجنها والعودة إلى حلمنا... إلى زمننا الأخضر!

أفقتُ على يدٍ حانية... إنّها يدهُ... لم يكن الوقوع في السّاعة إلاّ كابوساً طويلاً... ها أنا أتبعهُ إلى الصّحراء..

لعبة عشتار

كعادتي في وداعِ الماء أرمي حصاةً وأنسى أمواجها تتّسع.. كان قلبي ينبضُ بسرعةٍ خاطفة عندما رأيتها تخرجُ عاريةً تماماً... قالت:

-أنا (عشتار).. هل تعرفني..؟!

قلتُ مرتبكاً: لا...

عادت إلى الغطسِ... أصابَ وجهي شيءٌ من حليبها الفيروزيّ... دُفعةً واحدة هطلت إلى قلبي تمخرُ عبابَ السّنين.. قلتُ في نفسي ماذا فعلت بي أحلامي..؟!

لم أتذكّر، مضيتُ في الطّريق الموحشة... أدركتُ أني لستُ في النّهر، لكنّني تائهٌ في خارطةِ التكوين..

حرارتي مرتفعة... جسدي يرتجفُ لاشكَّ أنّها الحمّى التي دهمتْني في العام الماضي، ها هي ذكراها تعودُ من جديد.

لساني ثقيل، أسعلُ بشدّةٍ وأعدُّ أعقاب السّجائر في منفضةِ الأمس، أعبثُ بشفاهي، أتسلّى بالكلمات ثمَّ أعودُ إلى السّرير، حيث الكلمات الزّرق المخنوقة لا تبقي لي مكاناً، أبقى واقفاً، أنتظرُ الطّبيب الذي يقيس نبضي فيسمع ولولة الفصول وبكاءَ الشّجر...

كنتُ صامتاً عندما هربَ مسرعاً كلحظات الفرح، حيثُ تركني أتخصّبُ مثل الفحم وبذور الورد والجثث الميّتة.. سأحاول أن أجد تسليةً ما... أنهضُ إلى الشّرفة... أنظرُ إلى الأطفالِ الحفاة، مرّوا أمامي حاملين الأغنية لأخي الصّغير... مرّوا بمواكب غبطة... بسرايا الياسمين... مرّوا هكذا من دونِ إذنٍ من خيال.. أمّي وأبي قد تركاني أبحثُ عن ظلّي، من يعرف ابتهالي للورق وأشواقي للمنزل الهرم العامر بنومي الطّويل. أصحو في جوف صخرةٍ كبيرةٍ وقفت تحاورني:

-من أنتَ..؟ كيف دخلتَ إلى جوفي..؟!

-من أنتِ..؟! من أين يأتيني الصّوت..؟!

قالت: أنا الصّخرة، سجنك المفضّل يا عزيزي، شعرتُ بالظّلمة، دعوتُ اللّه كما كنتُ أفعلُ عند المصائب... بيد أنّي لم أتذكّر عملاً صالحاً يشفعُ لي ويزيحُ عنّي تلك الصّخرة الضّخمة... بدأتُ أشمُّ رائحةً أليفة، ربّما كانت لأمّي أو لأختي الكبرى، يا اللّه كيف دخلت الرّائحة إلى هنا... كيف...؟! إنّها تشبه رائحة منزلنا هناك.

-اصبر قليلاً... سأزيحُ عنك الصّخرة يا ولدي، لا تقلق.

بدأ الضّوء الحزين يتسلل مثل مياهٍ تتبعُ من تحتِ الباب.. مثل بقايا مطر. ظلّت أمّي تسندُ حزني على كتف الأيّام غير آبهٍ بالقادم.. كانت تروّضُ جوعي لتبني لي أحلاماً بيضاً تشدّني ليديها وتحملني خارج ذلِّ الانحناء، لازال قلبي يستميل الخريف مثل زجاجٍ هشّ. ـ ألم أقل لك تزوّج يا بني... تزوّج... حياتي ليست دائمة... أنا أتجوّل على حافّةِ قبري وأنتَ غير مبالٍ بما يجري، ليس في ذهنك سوى السَّفر.

-آه يا أمّي لو تعلمين:

في هذه السّنة لن تنام الفصول، سوف تبقى مستيقظة مثل حيوانات لبونة نسيَت شكلها.. حياتي الجديدة ستكون في الغابة بين الحيوانات التي علّمتني لغتها وشكل أصواتها... وماذا يهمّني إن حطَّ الببغاء على رأسي أو أتت فراشة.. طالما سَأُنقَل إلى الغابة... هكذا قالت مديرة الآثار، لقد سمعتها بأذنيّ... إنّ مكوثي في فجوةِ الصّخرة لم يعد مُجدياً.. لم تعد أعضاء الرّجولة تثيرُ الضّحك لدى القادمين... لقد تغيّرت الوجوه، بتُّ لا أرى وجوهَ قومي... لم أعد أسمعُ أنّ تمثالي يشبه امرأَ القيس... لقد قال الخبراء إنّ الفيروس بدأ يأكل من حجري... ستسقطُ يداي ورجلاي... ربّما هو مرض (الجُذام) الذي أصابني عندما كنتُ بين الأحياء وهو لا يريدُ أن يتركني، سيأكل من حجري، فجوتي مغلقة حتى إشعارٍ آخر.

بتُّ أشعرُ بليونة حجري... عادت الأوجاع إلى جسدي والحجريات تتحوّل إلى لحمٍ يتفقّدُ أجزائي من جديد... أدخلُ في نومٍ عميق.

أمّي تحاول إيقاظي.

-دعيني يا أمّي لا أريدُ أن أستيقظ مثل قطٍّ ممزّق الشّاربين... مثل ببغاء محنّك يتكلّم عن أسرار الغابة.

أسرار:

-يقول الببغاء: كلامي ليس دقيقاً.

-أقول له: السّعادين قتلت أفراخك.

-يقول الببغاء: أفراخي ليست مهمّة.

الغابة في خطر وأنت تقول أفراخي؟!!

ليس لديك حكمة... أنتَ لم تتعلّم شيئاً، انظر إلى السّلاحف التي تُضربُ على ظهرها وتتألّم من بطنها... هكذا تقول وبصريح العبارة (بطني يؤلمني) إنَّ حكمتها حيّرت سكان الغابة، دماغكَ الصّغير لن يَفهمها أيّها الإنسانُ الغبيّ.

الإنسان الغبيّ:

تمثالي مسجّىً في شاحنة ضخمة... الحبال تلفُّ جسدي الحجري من أجل رفعي إلى أعلى... الطّريق مازال طويلاً... ولولة السيّارات ما تزال تزعج السّكون حيث الأماكن غير المأهولة.

الحرّاس يتمازحون وهم يشيرون إلى منطقة العورة.. (المديرة) تشير إلى المكان على ضفّة النّهر.. هيّا أسرعوا علينا أن ننتهي قبل حلول الظّلام ...أصوات المطارق والرّافعات تتعالى:

-دعه إنّه متين لن تسقطه الرّياح... البعض الآخر أبدى استياءاً من قدومي هنا.. [من سيراهُ هنا]؟

أيُّ سائحٍ سيأتي إلى هنا..؟

-ليس هناك جدوى اقتصاديّة من وضعه في هذا المكان، إنّه منفىً للتمثال... قائماً تركوني وانفضّوا من حولي... أشعرُ أنّني في مكانٍ غريب وغابةٍ غريبةٍ.. لا أرى إلاّ التّماسيح تتطاير أمامي دون أن أفهم ما يجري... سأبقى مهجوراً مثل تمساح.

مثل تمساح:

صدّقني أيّها الببغاء نحن غير مسؤولين عن اللعنة التي أصابتنا، ونحن نمشي على بطوننا... نحن الملعونين من حيوانات البريّة، لم نكن

مع الأنبياء ولم نؤذهم حتى تصيبنا اللعنة التي جعلت بيوضنا عُرضةً للسَّرقة والنّهب... كيف لك أن تستوعب ما نحن فيه... نحن نُباد بطريقةٍ أو بأخرى... الفيلة التي كانت مع (أبرهة) حاولت هدم كعبة البشر... مات منها الكثير، لكنّها بقيت فيلة تمشي على أربع، بقي لها خرطوم طويل يستطيع أن يخلع الشجرة من مكانها... يقتلعها من جذورها.

يجب أن تفهم أنّنا جميعاً في خطر.. نهرنا يُستباح من قِبل السّفن الثقيلة والنفايات السّامة.. بيوضنا باتت خديجة.

-هل رأيت تمساحاً بجناحين..؟!

-أنا رأيته هناك في الضّفة الأخرى.

-هل رأيت قطّة من دون ذيل؟

-نعم إنها هناك في الضفّة الأخرى.

-هل رأيت سعداناً برأس تمساح؟

-نعم إنّه هناك يأكل السّمك وجوز الهند معاً.

تبّاً لهذه الغابة!

التّمساح يقفز في الهواء بغضبٍ شديد ثم يغطس في النّهر مُصدراً صوتاً قويّاً... الكلاب تبدأ بالنّباح، بينما الببغاء يتّجه إلى حيث والدته، يجلسُ بقربها، وهو يتفرّج على أخيه المربوط إلى الشجرة.

أخي المربوط إلى الشجرة:

أخي المحروم من الطّعام سيبقى من دون حكايةٍ عن الثلج والدّبس المحنّط.. سيبقى هكذا من دون دروب، من دون أعمدة يتشيطن عليها مثل عصفور ضاحك... لقد كَبُرَ سريعاً ونحن لا نزال نبحث له عن

مطحنة الرّز، عن أحلامٍ بيض... أخي المربوط على حافّة الطّريق مثل إشارةٍ للمرور بعثرته الملائكة مثل أوراق الأقحوان.

أقحوانُ الملائكة:

بعدما صعقني الجليد المقيم بقيتُ مجمّداً لأعوامٍ طوال داخل ظُلمتي التي تعايشتُ معها... بدأتُ أرسم خريطةً لحزني... جاء الوقت الذي بعثر أجزائي:

[قلبي في حمص ــ رأسي في طرطوس ــ الكليتان في حوران ــ اللسان في السويداء ــ يدي في اللاذقية والأخرى في بانياس ــ الكبد في الحسكة...].

قبل أن أجمع بعثرتي قال لي الأطبّاء: هناك فجوة في قلبكَ العليل لا تزال تتّسع، قلبكَ لم يعد مضخّة للعواطف، لقد دخل فيه دم (البرونز).

لقد بدأت حكايتي مذ كنتُ طفلاً ألفظُ الأحرف بصفيرٍ حاد، لم ينتبه والدي إلى حالتي لأنّني لم أكن الطّفل الوحيد في العائلة، أظنّ أنّني كنتُ ابناً للزّوجة الرّابعة التي رحلت باكراً... لم يكن لدماغي الصّغير أن يفهم معنى الرّحيل... كنتُ أشعرُ بوخزٍ دائم في جهة القلب، كان والدي يعالجه بـ(الزّهورات والملّيسة والبابونج)، وكان يردّهُ إلى كثرةِ اللّعب مع أنّني بطيءُ الحركة سريع التّعب... لقد كبرتُ سريعاً وكبر معي المرض. فجوةٌ في القلب ثمَّ خللٌ في (الدسّام التّاجي) ثمَّ... ثمَّ... وهكذا لا أكاد أنتهي من نوبةٍ قلبية حتى أدخل في أخرى.

مرَّ زمانٌ طويل، هجرتُ المدينة تاركاً فيها قلبي ثمَّ اتّجهتُ إلى مدينةٍ أخرى للعلاج من مرضٍ آخر لقد وصفوا لي رمل البحر من أجل (الرّوماتيزم) الذي أصاب مفاصلي. دفنتُ جسدي في الرّمل لأيامٍ طوال حتّى أصابني (الجذام) وبدأت أصابعَ قدميَّ تتساقط... أدركتُ أنّني لن ألعب كرة القدم إلى الأبد... تركتُ جثث أصابعي في البحر واتّجهتُ إلى بحرٍ آخر أنشدُ سفينةً ما تأخذني بعيداً.. كان البحر قد أغلق شواطئه في وجهي، قالوا لي إنَّ والدتي على قيد الحياة، وهي في القرية تمضي شيخوختها، قلتُ لابدَّ أن أراها قبل أن يتساقط المزيد من جسدي... ركضتُ إليها لأبحث عنها... ليس من أجل العتاب ولكن من أجل وداعها فقط، لقد بقي في (لا وعيي) عاداتٌ كهذه.. بعدما أصابني اليأس جاء من يدلّني على (صندوقها)، إنّ عظامها ممددة في صندوقٍ من الخشب المتواضع... هيكلها العظمي بقي على حاله لم يتبدّل... لم تعبث به الأيّام، لا ينقصهُ إلاّ اللحم الذي أفناهُ والدي... أخبروني فيما بعد أن أمّي هي الثانية وليست الرّابعة وهي موجودة في القنيطرة مع جدّتي (بائعة السّلبين).. أتفقّدُ أركان جسدي، أيّة قطعةٍ منه كانت هناك، لابُدَّ أن أتذكّر قبل الفجر حيث يصحو الأحياء ويمارسون حياتهم الذّاهبة إلى الضّلال... لقد تذكّرت، إنّها (معدتي) لقد أسعفوها إلى مشفى الجولان وعندما وجدوهُ مخرّباً تركوها.. ثمَّ سحبتها القطّة إلى سينما الشرق حيث العمودان الأخضران وجزء من المسرح.. كلّ ما بقي بعد الخراب.

تمثالي العاري:

بقي تمثالي عارياً حيث تبدو أجزاءُ الرّجولة للمتفرّجين.. أرقبُ بصمتٍ تبسّمات الأطفال الزائرين وأسئلتهم البريئة.. أرقبُ المتصوّرين

قرب جسدي... أشعر بطمأنينة الحجر، حيث تضع الفتيات أيديهنَّ على كتفيّ.. الجميع يحضنني، الكبار والصّغار.. أرقبُ البهجة في قلوبهم، تدبُّ في حجري الحياة.

كان بعضهم يسترُ عورتي بالجرائد، والبعض الآخر يلفُّ حول وسطي (شالة) ملوّنة كأنّه يدعوني إلى الرّقص مع حجري.

أحد الأدلاّء السيّاحيين يشرحُ للزوّار نسبي الذي لا أعرفه، ويشعر بأنّه يبوح بحقيقة تاريخيّة.

أنا ابن (نائلة) و(أساف) اللّذين فعلا ما لا يُفعل داخل البيت المقدّس حتّى تحوّلا إلى حجر.. أنا ابن الحجر، لم يتغيّر في داخلي غير لون الدّم، حيث تتبوّل الفصول على سريري، وأنا أرقد كبطّة سوداء تغضب في كلِّ صباحٍ ولا ينتهي غضبها في سواد المساء، إنّها شاهدة الخوف على مصير محتوم ينتظرني في برزخ كلِّ يومٍ جديد.

أرفع سمّاعة حجري، أتوهَّمُ أنّي أتكلّم مع أحدٍ ما... لا أحدَ يعجب بصوتي، لا أحدَ يستقبل قبلاتي، وحيداً سأبقى مثل آلهةٍ قديمة راعها مصيرُ الناس في الأسرّة الموحشة.

الأسرّة الموحشة:

لم تعد تؤثر بي عوامل المرض.. لم أعد أشعر بالألم، لقد شطبني النّاس من إحساساتهم وتحوّلتُ إلى حجرٍ للتسلية... كان البعض يمدح صانعي، ويقول بأنّه فنّان حاذق والآخرون يُثيرهُم نحتُ أعضائي... إنّهم يتهامسون ويضحكون.. عندما يأتي المساء يختفي الزوّار وأعود لأسأل عن الثانية من زوجات أبي، هل كان اسمها (نائلة).. إنّها في (بانياس)

ترقدُ في القلعة القديمة.. روحي تحلّق هناك تتذكّر عملية (الكبد) الذي أصابه التشمّع من كثرة ما تناولتُ من الخمور... لقد استأصلوا جزءاً منه في محاولةٍ يائسةٍ لبقائي بين الأحياء.. أسرعَ أحد أقاربي إلى دفنه داخل القلعة متوسّماً الخير والبركة.

إنّها (نائلة) أمّي أو خالتي، لستُ متأكداً، لكنّها دُفنت هناك في بيتٍ مهجورٍ أتقصّاهُ الآن.. إنّها ممددة بكامل ثيابها، ربما تكون نائمةٍ أو ربّما حالمة (بطفل) لأنّ المرويات تقول بأنها عاقر ولم تُنجب.

النّهار يدخل مبكراً إلى قاعة المتحف.. النّاس يبدؤون بالتّوافُد، عليَّ أن أتوقّف... عليَّ أن أكون حجراً رزيناً في قاعة المتحف، وإلاّ سيتمُّ نقلي إلى مكانٍ آخر في بلادٍ لا أفهم لغتها ولا أستقرئ إحساسات أبنائها.

أحدُ النّحاتين يدخل إلى قاعة المتحف... يشاهد مزاحَ النّاس وتعليقاتهم، فيحضر إزميله... ينحت في مكان العورة محوّلاً أعضاء الذّكورة إلى عصفورٍ يبهج القادم.

القادم:

ترشحُ من جسدي العصافير... إنّهم يضربون قاعدة قدميَّ بالمطارق الثقيلة.. إنّهم يريدون نقلي، بينما الخبير الأجنبي لا يبالي إن كسرت سُلاميّات قدميّ أو بقيت:

-كفَّ عن ضربي أيّها الغبيّ.. أنت لا تعلم شيئاً.

الأمطارُ مستمرّة في الهطل، لقد تحوّلت سيولاً، بدأت تجرفني قطعةً... قطعة، كنت مسجّىً هكذا:

مستريحاً على الورق، مربوطاً بخيط الاستقامة، مثبّتاً بالمستطيل والمربّع.. يدا المستطيل مفتوحتان ملوّنتان بالأزرق مثل جناحَيْ طائرٍ شجاع يداهمه الرّصاص.. القدمان صفراوان مثل قشور الموز.. رأسي كان قمرياً في ليلٍ يغلق أبوابَ السّماء.. وحيداً أدخلُ فجوةً في الصّخر.. الضّباب يضربني وكأنّه يعيدُ أشيائي التي عاشت هنا.. إنّه يلفّني مثل ريحٍ تعيدني إلى السّاحات حيث يكتظُّ النّاس حولي، سيتركونني بعد قليلٍ مثل تمثالٍ من العجوة.

أظلُّ في حيرةٍ من أمري؟.

كيف أصنعُ الأمنيات؟

يدفعني شوقي إلى الممرات... إلى الأزقّة النّامية في جسدي المحنّط.. الفصول تبدّل ثيابها، لكنّه الخريف يسكن رأسي مثل قبّعةٍ حمراء تطاولت في المكان وخزّنت الحلوى للأطفال القادمين من الخيم.. رويداً... رويداً سوف أنتهي مثل نكتةٍ مضحكة حيث الرّوح المغمورة بشفاهِ القمر والهواء الذي يتركُ الرّئة ببطء.. حبّات البرد تهطل في الخارج، ستتحوّل بهمّة الأطفال إلى بالونات بيض أو إلى زجاج نفيس يُصنع منه الأمل، لقد صنعته زوجتي كما تصنع الشاي.

هنا زوجتي التي تركت ثيابها ودلَّة القهوة على نار القمر، ومضت هاربةً تولول مثل مطر منكوب، تركتني مسجّى على المحفّة لا أحد يحيطُ بي.. الكهنة هربوا مثل فئرانٍ بيض وأنا ما زلتُ وحيداً أرقبُ جسدي، لقد بدأت رائحة العفن تنتشرُ حولي وطنين الذّباب يحشو رأسي... أكياس الثلج تتكدّس في الفم... السّرة... الكعبين... الـ....

سيحيلني الثلج إلى خزفٍ للمجالي الملوّنة والمراحيض والمغاسل المذهَّبة بصفرة الكون..

في كلِّ صباحٍ أركلُ السّرير.. أتذكّرُ نهايتي.. أشكر الله على نعمة الموت، أشعرُ بجسدي وهو يتمدّد مثل سكّةٍ لقطارٍ بعيد... أفرشُ له الحصى، أُخرجُ له الصّفير من رأسي المحشو بسيول الذكريات.. ماذا أتذكّر؟!

جالساً في المقهى الصّباحيّ كعادتي صامتاً.. يقول أحدُهم: المتقاعدون زيادة عدد... كالرّمال في الكلى هكذا + + +

مرّت أمامي خطايا العمر كاملةً، كانت مثل قطارٍ بخاريّ، ظللتُ صامتاً. قال الذي بقربي إنّه كائنٌ سلبي هكذا - - -

لم أنتبه إلى هذا المصطلح، كان صعباً جدّاً، لكزني أحدُهم في المقهى وقال:

يعني ناقص يا فهمان، ورسم على ظاهر يدي هذه الإشارة –

لم أكن أفهم أنّها إشارة للحوار...

عن أيِّ حوارٍ أتحدّث، أيّة حصاةٍ أصابتني الآن، وأنا أتحسَّسُ أقدامَ الكرسيّ وأتمنّى ألاَّ أقف لأبكي الدّيار مثل امرئ (الإيش).

الهروب إلى البرتقال

ــ يابا.. يابا ثلاثة أيّامٍ مضت عليك وأنت لم تخرج من البيت.. لا تقل إنّكَ مريض.. لقد تعافيت.

ــ الحمد للّه.. اتركيني قليلاً يا منال..

كانت منال تشدّني وأنا أحاول العودة إلى النّوم، إنّه اليوم الوحيد الذي أستطيع أن أنام فيه حتّى منتصف النّهار...

ــ هيّا يابا.. هيّا.. السوق سيقفلُ باكراً.. إنّها فرصتنا الوحيدة لكي نشتري ما نحتاجهُ بأسعارٍ مناسبة.. نحن لا نستطيع أن نشتري من الواجهات الفخمة.

أحضرت منال السّترة الجلديّة و(البوسطار) والجوارب.

ــ هيّا.. أسرع يا أبي، أريدُ عربةَ أطفالٍ من أجل الدّمية.. أريد دميةً كاملةً غير منقوصة.. كلّ الدمى عندي ناقصة اليد أو اليدين أو الرجل أو الرجلين.

ــ لقد كبرتِ.. الدّمى للصّغيرات..

نهضتُ متثاقلاً.. في الطريق أحاول أن أفهمها أن تكتفي بما عندها من الدمى..

وصلنا إلى نهاية الشارع، كنّا نتفحّصُ (البسطات)..

منال مسمّرة أمام إحدى البسطات، لقد وجدت كرةً أرضيّةً ملوّنة ولكنّها مكسورة القاعدة.

صرخ البائع:

ـ خذها يا عم.. خذها.. تستطيع إلصاق القاعدة..

ـ يابا.. اشترِ لاصقاً.. سنصلح هذه الكرة..

قبل وصولنا بأمتار حيث منزلنا المتداعي في المخيّم. كانت منال تمشي أمامي بثبات مثل جنديّ متدرّب..

بعد برهةٍ وصلنا إلى المنزل.. كانت منال تغسل الكرة الأرضيّة بكميّاتٍ كبيرة من سائل التنظيف..

أصرخ بها:

ـ لقد أفرغتِ العلبة.. ويحك لقد أتلفتِ المصباحَ بداخلها.

ـ هو تالف منذ أن اشتريناها.. لا حاجة للمصباح..

ـ حسناً، خذي الكرة الأرضية إلى الشّرفة كي تنشّفها الشّمس.

ـ ليس هناك شمس.. إنّه يوم غائم.

ـ ضعيها في الممر حتّى تجفّ.

ـ ستتكسر يابا.. ستتكسر.. سيضربها أبناء الجيران.

ـ خذيها إلى الجحيم.. يجب أن أنتهي من هذه القصّة.

منال تبدو صامتةً وحزينة.

كنت أحوقل وأقلقل.. لقد جلبتُ إلى المنزل مشكلة جديدة.

يا ليتها اشترت دمية وانتهى الأمر:

ــ منال خذيها من وجهي سأكسرها.. بقي ثلاث دقائق على غضبي.

هرعتْ إلى الكرة واحتضنتها من جديد وجلست في صدر الممرّ..

ظلّت متكوّمة فوق الكرة إلى أن نامت..

في الصباح ذهبت منال إلى المدرسة وظللتُ في المنزل، كنت متألّماً جدّاً لإزعاجها بهذه الطريقة، أمسكت بالكرة الأرضيّة وقمت بإلصاق القاعدة.

أبقى وحيداً. أُخرج الأطلسَ الممّزق وأبدأ بتقليب الخرائط كأنّني طفلٌ صغير تغريه الألوان.. كأنّني لأوّل مرة أتصفّح هذا العالم.

عادت منال من المدرسة تجرّ محفظة الكتب،.

بدأت تسردُ التقرير اليوميّ بسرعة:

ــ أستاذ الرسم يريد المزيد من الألوان.. أستاذ اللغة العربيّة يريد معجماً للبلدان..

ــ حسناً.. حسناً.. ما تأكلين اليوم؟

ــ إنّني لست جائعة، لقد أكلتُ في المدرسة.. هل أصلحتَ الكرة الأرضيّة؟

ــ نعم لقد ألصقت القاعدة.. مساء هذا اليوم يمكن للكرة أن تدور وللنّاس أن يتقاسموا الانتظار..

منال تحمل الكرة وتمضي إلى غرفتها..

انسحبتُ بهدوء.. عدتُ إلى أطلسي.. كان الهواء قد أدار الصفحات على مزاجه.. وقف الهواء عند الجزائر.. هنا ولدتْ منال أثناء إعارة والدتها لتدريس الجغرافية.. كنّا هنا في ولاية (تيزي وزو)، في قرية نائية اسمها (بغليّة)، الأطفال هنا يأكلون (الشّطّة) وكأنّها (شوكولا).. الشّطّة التي أحرقت فم زوجتي (وزيرة) في يوم حملها الأوّل، فجاءت تولول.. وعند انتهاء الإعارة ولدت منال في الطائرة.. وحازت على الجنسيّة الفرنسيّة..

عدتُ إلى غرفة منال حيث الخزانة.. خطر لي أن أصوّر شهادة الميلاد على عدّة نسخ خشية الضياع..

- يا منال تعالي..
- إلى أين؟
- سنذهبُ في نزهة

بدأنا نبتعد شيئاً فشيئاً عن المخيّم، من بعيد بدا المخيّم ككتلة وحيدة خارج الأماكن المأهولة، كانت منال تتأبّطُ بي بقوة وهي تلتفت يميناً ويساراً، كنت ألمحها في المرآة ولكنّني أحاول أن أهتّم بقيادة الدّرّاجة..

ـ يابا.. يابا.. إنّها شرطة الدّرّاجات سيتبعوننا وسيأخذون منّا الدّراجة.. أسرع.. أسرع.. لقد انتبهوا إلينا.

ـ منال.. منال.. تمسّكي جيداً لن ينالوا منّا.

بحركة دورانيّة سريعة صارت الدّرّاجة بعكس السّير.. السّرعة تضاعفت وكنتُ أساعد البطاريّة بمداس القدمين.. كانت درّاجة الشّرطة الضّخمة.. تلاحقنا.. وتولول...

ـ يابا.. يابا.. سيقبض علينا.. اضربه بقدمك فيتزحلق.

ـ منال اصمتي ولا كلمة.. سنهرب

أصبحنا الآن بمحاذاة الرّصيف:

ـ أمسكي بي جيّداً سنقفز فوق الرّصيف.

لا جدوى من بقائنا فوق الطريق، سيقبضون علينا بسهولة ولا جدوى من سيرنا فوق الرّصيف مدّة طويلة.. إنّه عامل تأخيرٍ للوقت..

ـ يابا.. يابا.. يتبعنا

منال.. منال.. أمسكي بي جيّداً.. سنصطحبه إلى النهر.. إنّه وراءنا ربّما يتركنا حالما نقترب من باب المخيّم..

ـ يابا.. يابا.. سيقبض علينا حرس المخيّم ويسلّموننا

إلى الشّرطة..

ـ منال.. منال سنغيّر الاتّجاه بسرعة.. نحن نقترب من النّهر، لا يستطيع الشّرطي أن يلحق بنا، ستغوص دّراجته الثّقيلة في الوحل..

هنا مصبّ الصّرف الصّحي، ..

دراجة الشّرطي الثّقيلة تغوص في المياه الملوّثة فيصرخ:

ـ قف.. قف.. وإلا أطلقت النّار

قلتُ لابنتي مُتأهّباً:

ـ منال حاولي التّسلّق على ظهري وتمسّكي بعنقي مثلما تركبين على الحصان.. هيّا.. سنقفز في النّهر.

الشّرطي يركض.. نحن نقفز في النّهر.. النّهر الذي يسرع بنا إلى المصبّ..

إلى الضّفّة الأخرى عبرنا.. منال تسعل بشدّة.. أتركها تحت شجرة التّين وأمضي إلى النّهر.. لقد اختفى الشّرطيّ.. درّاجتي، عالقة في القاع لا يمكن أن يجرفها النّهر، أقوم بعدّة محاولات فاشلة عساني أخرجها من مكان الغطس.. ثمّ أخرج إلى منال..

ـ منال.. منال.. استيقظي هيّا..

ـ أريد حَبّة تين.

ـ التين غير صالح للأكل.. لمّا ينضج بعد..

كانت منال تعضُّ على حبّة التّين المفتوحة وتأكلُ بعبوس يثير الضّحك.

ـ هيّا يا منال نريد أن نتدبّر حِبَالاً..

ـ نريد أن نستخرج الدّرّاجة ونمضي إلى مكاننا.

ـ يابا.. إننا على مسافة بعيدة عن المكان.

– حسناً فكّري معي كيف يمكن إيجاد الحبال؟!

خلعتُ سترتي الرماديّة وسترة منال.. وزنّاري وزنّار منال ورميت بجسمي في الماء.. لقد نجحت بفكِّ علبة البطّاريّة..

إنّها ثقيلة..

كانت منال قد ناولتني طرف الزّنّار لربطها..

عندما خرجتُ من الماء كانت علبة البطّاريّة بحالةٍ سيّئة.. تركتها وعدتُ إلى الماء رفعت الدّرّاجة إلى طرف الضّفّة.. كانت الحبال كافية لإخراجها.. منال تصفّق وهي ترتجف من البرد..

ـ ارقصي (فلامنغو) ريثما نصلح الدّرّاجة.

الليل بدأ يهبط في المكان.. لابدَّ من تنشيف البطاريّة بشكلٍ جيّد.. حتّى تعمل الدّراجة..

ـ هيّا يا منال.. سنستعمل مداس القدمين في قيادة الدّرّاجة.

ـ يابا.. يابا.. يجب أن تتأكّد من ذهاب الشّرطيّ.

ـ حسناً.. قفي فوق كتفيَّ وانظري في الجهات الأربع.

ـ يابا.. يابا.. سيّارات الشّرطة تطوّق المخيّم.. الأضواء الحمراء تملأ المكان.

قلت مستسلماً:

ـ علينا البقاء هنا هذه الليلة.

أنزلتُها عن كتفيَّ:

ـ تعالي لا عليكِ.. اخلعي ثيابك المبلَّلة خلف الشّجرة وارتدي السّترة الجلدية (بالمقلوب) لتجفَّ البطانة على مهلها.. سنأكل من شجرة التّين الفجّة.. هيّا اضحكي.. سأجلب لك الكثير من (قضامة النّجّار)(*) وأقطف لك من تاج الشّوك.. سنأكل حتّى نشبع.

بدأت منال بالأكل وبدأتُ بفكِّ البطاريّات من جديد، بهدوءٍ وتركيز.. حاولتُ تجريب الدّرّاجة.

ـ منال.. منال.. إنّها تدور.. لا نستطيع استخدام الأضواء هنا.. سيعرفون مكاننا.. ما رأيكِ بجولة أخرى.. لقد مضى الكثير من

(*) بذور نبات الخُبَّازة

الوقت.. السّاعة تجاوزت العاشرة ليلاً، العناصر سوف تتبدّل و(الطّاسة تضيع) هيّا يا منال يا منظاري قفي فوق كتفيَّ وانظري..

ـ يابا.. سحب من الدّخان تتصاعد فوق بيوت المخيم.. لا يوجد أيّ ضوء لسيّارات الشّرطة..

ـ حسناً.. يكفي.. هيّا ارتدي ثيابك بالشّكل الجيّد..

ثمّ قلتُ لها:

ـ سنغادر.. البطّاريّة تعمل لمسافة 5 كم فقط.. سنتدبّر أمرنا.. سنتّجه نحو الطريق الدّوليّة ولكن بدون أضواء.. إنّ الطريق ملساء.. موحشة..

منال.. لا تنامي.. كلّميني عن وضع الطريق خلفنا وعن يسارنا ويميننا.

وصلنا المخيّم عند الرّابعة والنصف فجراً.. الشّوارع خالية.. لا أحد داخل المخيمّ.. ربّما النّاس نيام.. لا أسمع أذاناً للفجر.. المسجد مغلق.. الكهرباء مقطوعة بالكامل بالكاد أضاء مصباح البطّاريّة ضوءاً موحشاً.. وصلنا مُرهَقَيْن..

أفقتُ من النّوم عصراً:

ـ هيّا يا منال استيقظي.

أشعر بالقلق.. أنظر من النوافذ لا أحد يسير في الشارع.

ـ منال تعالي وانظري.. المخيّم خالٍ من السّكّان.

منال تضحك وترقص.. قائلةً:

ـ عادوا.. عادوا.

ـ هيّا سنرحل.

أُنـزلُ الحقائـب مـن فـوق الخزانـة وأفتحهـا.. أتـرك منـال تجمّـع الحوائج وأهبط مذعوراً إلى الشّارع.. أستطلع.. لا أحد.. لا أحد.. أتفقّد الدّرّاجة.. إنّها تعمل بشكل جيّد.. أصعد بسرعة..

أحاول تجميع المقطورة مع الدّرّاجة من أجل حملِ الحقائب..

الحقائب مفتوحة.. منال ساهمة..

ـ هيّا ليس لدينا وقت.. ساعديني.. اجمعي كلّ ما يتعلّق بالدّرّاجة من قطع.. ماذا تفعلين.. بطّانيّتان تكفيان.

أقـذف بـالحوائج داخـل الحقائـب.. أَجُرُّهـا إلى مـدخل البنـاء.. الحقائب داخل المقطورة.. قافلتنا تسير..

ـ منال.. هل نسيتِ شيئاً؟

– لا أدري..

أعبرُ الجسرَ الخشبيّ الضّيّق إلى الضّفّة الأخرى.. بتأنٍّ وحذر..

نجلس هناك لنتفقّد ما نسيناه في المخيّم.. لابدّ من ترتيب الحوائج وتفقّد المعدّات من جديد:

ـ يابا.. اترك من يديك وخذ العلبة الحمراء.. رتّب أمور الدّرّاجة.. خذ هذه القطعة.. إنّ شكلها غريب.

ـ هذا دينامو أهدانيه صديقي (خوليو) في اليونان وعلّمني كيف يتّم التخّزين داخل البطاريّة وأعطاني كلّ القطع والتّوصيلات اللازمة

مجّاناً كما درّبني مراراً على كيفيّة التّركيب والتّشغيل.. تعالي وتعلّمي الفّك والتّركيب هيّا.. أريني.. أعيدي الكرّة.

ـ لا إنّني متعبة...

ـ لن تنامي ولن تأكلي حتّى تركّبي الدينامو لوحدك.. دون تدخّلي.. هيّا آه.. لقد نسينا الطعام.. سنأكل المربّى لمرّة واحدة فقط.. وغداً سنتدبّر طعاماً من المكان.

ـ كيف؟

ـ سنأكل الحلزونات.. في الجزائر يأكلونها.. ويصنعون منها طعاماً لذيذاً ومفيداً.

في الصّباح كانت الشّمس أكثر دفئاً..

ـ يابا.. أريد أن أقفز في النّهر.

ـ ستقفزين.. سأعلّمك القفز في الظّهيرة..

تعالي لنجمع الحلزونات ونحضّر طعام الغداء.. يجب أن تطيعي الأوامر، نحن في وضعٍ طارئ.. يجب علينا عدم التّسرّع في أيّ عمل نقوم به.. أتفهمين؟

ـ نعم.

ـ هاتي الحبل الطّويل وتعالي.. هيّا.

ـ الحبل الطّويل.. الضّربة المزدوجة.. الصّحن الدّوّار.

اربطي طرف الحبل في شجرة التّين.. والطّرف الآخر سأربطه أنا في شجرة السّنديان.. هناك..

ـ حاضر..

-انتبهي إلى العقدة.. سأتفقّدها بنفسي.

هيّا أيتّها البطلة.. هيّا.. اسبحي بجانب الحبل.. واخرجي عند الإحساس بالتّعب..

لابدّ من العودة إلى المخيّم.. لقد نسينا الكثير من الحوائج.. في بطن الليل سأنطلق بمفردي.. يجب تمويه الدّرّاجة بشكلٍ جيّد.. سنتناول الآن الحلزونات.. وبعد ذلك.. اجمعي أغصان الأشجار والزّيزفون وزيّني بها الدّرّاجة.. أكثري منها.

ـ حاضر يابا..

السّاعة الآن الثّانية والنّصف ليلاً.. لأوّل مرّة أنظر إلى الوقت باهتمام ..

أيقظت ابنتي:

ـ يا منال: إذا أصبحت السّاعة السّادسة ولم أرجع.. اذهبي إلى خلف هذا الجبل.. هناك قرية على مسيرة ثلاثة أيّام.. عندما تصلين اسألي عن الأخت وداد وقولي لها إنّك ابنتي. ستكون في الدّير.. انتبهي هذه أوّل مهمّةٍ لكِ أيّتها الجنديّة..

خذي معك الصندوق الأخضر واتركي الباقي.. عُلِمَ؟

ـ نعم!

ـ اصعدي إلى أعلى الشّجرة.. لقد هيّأتُ لك مكاناً للنّوم وهو ممّوه بشكلٍ جيّد.

ـ حاضـــــر!

ـ أراك بخير يا ابنتي.

أودّعها.. أقفز إلى الدّرّاجة.. وأستقبل الطّريق المؤدّي إلى المخيم.. إنّها الثّالثة والنصف.. أنا عند باب المنزل في الطابق الأوّل..

الحركة ساكنة.. بحذرٍ أدخل.. أقف متأهّباً.. شاهراً سلاحي..

صوت طرقات يتعالى من الشّقّة المقابلة

ـ من هناك؟

ـ أنا هدى بنت خليل.

ـ أنا أبو منال..

صاحت باكيةً:

ـ عمّي.. (خوي غياث ميّت منذ يومين والرّائحة تكاد تخنقني..) أَخْرجني يا عمّي.

ـ حسناً يا هدى.. ابتعدي عن الباب وادخلي غرفة غياث.. هيّا. أستخرج (القدّوم) وأكسر الباب..

ـ أفّ.. أفّ.. الرائحة تكاد تخنقني أيضاً.. تعالي يا هدى.

ـ ألا تريد دفن أخي غيّاث؟

ـ (مش وقتو).. هيّا.. أسرعي إلى شَقّتنا.. سنأخذ بعض الحاجيات الضّروريّة ونمضي.. لا تصدري أيّ صوت.

تعلّقت بي ومضينا في طريقنا إلى منال ..

السّاعة السّادسة.. ابنتي ستغادر الآن.

الحمد للّه.. المسافة باتت قريبة.. الحقائب في مكانها.. هناك لوحة مكتوب عليها [لا تسرق الحقائب أيّها اللص.. ستنفجر في أيّة لحظة].

ـ قف.. مكانك لا تتقدّم خطوة واحدة.. الأرض من حولك محاطة بالألغام..

ـ منال أنا أبوكِ.

تقفز ورائي.. مرتدية خوذةً صفراء ولباساً مموّهاً.. لقد فتحت الصّندوق الأخضر.. الطّفلة هدى ترتعد.. وتصرخ خائفة من هذا الكائن الفضائيّ..

ليرحمك اللّه يا (وزيرة) كنت هكذا...

رحلتي معكِ كانت مليئة بالمفاجآت.. قلت لمنال:

ـ هاتي الصّابون هيّا.. إنّها هدى بنت خليل جارنا..

ـ أهلاً يا هدى.. الصّابون سيّدي.

ـ خذيها إلى النّهر وحمّميها.. (هدى تهرب وتلتصق بي باكيةً..)

ـ تعالي يابا.. تعالي.. سأحمّمكِ بنفسي.. منال.. منال.. تدبّري لها ثياباً نظيفة.. إنّها ترتجف.

ـ ليس عندنا ثياب على مقاسها ..

ـ منال.. ليس هذا وقتاً للمزاح.. هيّا.. منذ هذه اللحظة أنتِ مسؤولة عنها.. ستبقى معنا إلى ما شاء اللّه.. أطعميها وتابعي شأنها.. سأهتمّ بالأمتعة الجديدة.

الأمور بخير.. منال تغنّي: (توتي بلاس – فيت فوا.. آ.. فان آمور.. آ.. فان آمور..) (*)

هدى تروي لمنال ما حدث معها:

ـ كنتُ نائمةً تحت سرير أخي الرّضيع غياث وعندما استيقظت لم أجد أحداً وظننتُ أنَّ أمي وأبي في اليونان.

ـ لماذا كنت عارية عندما وصلَ أبي إليكِ؟

ـ عندما استيقظت من النوم كانت الرائحة كريهة جداً.. تنبعث من غياث وخزانة الملابس مقفلة ولا يوجد إلاّ (البطاطين) غطيته حتّى تذهب الرّائحة.. الرّائحة خفّت قليلاً ثمّ عادت.. خلعت ملابسي وغطّيتهُ بها.

ـ ما أدراكِ أنّه مات؟.. ربّما كان نائماً..

ـ لا.. لا.. إنّه ميت، لقد قرّبت المرآة من (خشمه.. فِش غبش..).

ـ منال كفّي عن الأسئلة.

هدى تبكي بحرقة شديدة.

ـ أريدكُ أن تتابعي شأنها بشكلٍ يومي .

ـ حاضر يابا ..

قبل الغروب قلت لمنال:

ـ الليلة سأذهب للمرّة الأخيرة إلى المخيّم.. أغلقي الصّندوق الأخضر كي لا تعبث به هدى.

(*) (كلّ الأماكن مشتاقة للحبّ).

ـ حسناً يابا.. إن لم تَعُدْ في السّادسة صباحاً.. سنذهب إلى الأخت وداد.. إنّها على مسيرة ثلاثة أيام. هدى تجهش بالبكاء لقد قفزت منال في النهر ..

ـ هدى يا حبيبتي ستبقين معنا.. أتفهمين.. الليلة سأحاول البحث عن والدتك وأحضرها إليك.. اجلسي هنا.. هاكِ الكرة الأرضيّة.. العبي بها.. إنّها جميلة.. منال تأخرّتِ في الماء.. منال.. منال.

أنظر إلى الحبل المربوط أراه يهتزّ.. أقفز وأرفعها.. تخرجُ متعبة..

ـ هدى.. جرّي البطّانية إلى هنا.

ـ حاضر.

ـ منال.. ليس هذا وقت (الأفلام). الأمور ليست بخير.. نحن لا نعرف ما جرى وما سيجري.. الأوضاع سيّئة للغاية..

ـ ما جرى.. تشرّدنا والحمد للّه.. وما سيجري.. سنخرج من هنا أو نموت (مش فارقة) تعالي هدى.. سأدلّك على اليونان في هذه الكرة الأرضيّة الصغيرة.. ستنادين والدك ربّما يسمع..

ثمّ خاطبتني: من الضروري أن تذهب إلى المخيم وتحضر لنا بعض الثياب.

(توتي بلاس فيت فوا.. آ.. فان آمور..).

منال وهدى تصعدان إلى الدرّاجة.. وتقومان بشحن الدينامو بتدوير الدّولاب في مكانه..

هدى تحمل الكرة وتقوم بتدويرها جالسة في المقعد الخلفي..

لقد حفظتُ الطّريق إلى المخيّم جيّداً، أعرف كم حفرة فيه.. صارت السّاعة الثّانية ليلاً سأذهب الآن وأعود في الصّباح..

ـ هيّا إلى أعلى الشجرة.. اصعدا معاً.. التّعليمات ذاتها يا منال.. لا أريد أن أكرّر.. حافظي على هدى.

ـ يابا.. يابا.. خذ المسدس.

ـ لا.. سيبقى معك.

أشعر بأنّني لن أعود.. قلبي مقبوض.. وأنا أبدأ الرحلة من جديد.. الكون ذاته.. الهواء ذاته.. لا شيء يتغيّر.. باب شقّة هدى المخلوع على حاله.. الرائحة ذاتها.. ألفُّ غياثاً بالبطّانيّة وأضعه في المقطورة.. أخلع الخزانة المقفلة.. إنّها فارغة، هناك صليب ذهبي في أرضيّتها مع سلسلة.. أضعها في جيبي وأدلف إلى الغرفة المقابلة.. إنّ فيها جثّة.. الرّائحة خفيفة محتملة.. أبدأ بجرّها إلى الخارج.. أجرّها إلى أسفل الدرج.. ثمّ إلى المقطورة..

نسيت الملابس لهدى.. الحقيبة فوق الخزانة.. أسحبها..

ألقي بها ما تطاله يدي.. (ثياب كبيرة.. ثياب صغيرة.. ثياب الرّعاة السماويّة.. إلخ..) أمضي إلى منال وهدى.. أنسى الرائحة وأقترب من المكان.

ـ يا منال

ـ قف.

ـ أنا أبوكِ.. منال.. أبعدي هدى عن المكان.. سأبدأ بالحفر.. معي جثّة غياث وجثّة امرأةٍ.. ربّما كانت والدة هدى.. هيّا..

ـ يوجد حفرة جاهزة يابا.

ـ أين؟

ـ هناك قرب شجرة الزنزلخت.

ـ حسناً.. ابتعدي عن المكان.

ـ ماذا؟ أنا لا أخاف من الموتى.

ـ إذن ساعديني لتوسيع الحفرة.. سنضع غياثاً وأمّه في قبر واحد..

بعد قليل انتهينا من توسيع الحفرة.

ـ منال ساعديني بنقل الماء.. يجب تغسيل الجثّتين

ـ يابا.. لا حاجة لنقل الماء.. النّهر موجود.

منال تقود الدّراجة إلى موازاة النّهر وتقوم بفكّ الحبل وتُعطينيه.. أربط به الطّفل وأغطّسه في النّهر.. ثمّ أضعه قرب الحفرة.

ـ منال.. أسمع صوت هدى.. إنّها تبكي.. حاولي أن تبعديها من هنا.. لا أريدها أن ترى ما يحدث.

ـ حاضر يابا.

منال تربط هدى إلى شجرة التّين وتضع فوق عينيها منديلاً أبيض حتّى لا ترى..

أربط الأمّ بالحبل وأدفعها إلى النّهر.. حمداً لله.. إنّها نحيفة أستطيع حملها بسهولة.

ـ يا منال.. جهّزي الثّوب السّماويّ.. والقمطة البيضاء إنّها في الحقيبة.. هاتيها وابتعدي.. الآن ستجري مراسم الدّفن.. اجلبي هدى وألبسيها ثياباً أنيقة.. قفا باحترام..

تطلّعت هدى إلى الوجهين النائمين:

ـ هذا أخي غياث وهذه الأخت وداد.. إنّها ليست والدتي.. قالت إنّها ستأخذني من هنا.. إلى الدير.. ولكنّها لم تأتِ.. هذه المرّة الثانية التي أراها..

صدمتْني المفاجأة، هذه هي الأخت وداد إذاً!!

ـ ساعديني يا منال بإهالة التّراب.. إنّني متعب جدّاً.. وأنتِ يا هدى تعالي.

أخرج من جيبي الصّليب الذّهبيّ وأضعه في عنقها.. تبدو كراهبة أو خادمة لمسيحٍ ما في هذا العالم القميء.

لقد نامت الأخت وداد وهي ترتدي ثوب الرّعاة النّظيف.. لا أدري كيف لم أتعرّف إلى جثتها.. ربّما اعتدت على رؤيتها بغطاءِ الرّأس.. كيف اخترت لها هذا الثّوب لتنام في الأبديّة.. حقاً.. لا أدري.. عندما تسمح الظروف.. سأجلب الكهّان إلى هنا.. لإقامة القدّاس. سأصنع لك صليباً خشبيّاً أضعه فوق ضريحك الملائكيّ أنتِ وغياث..

ليرحمكما الله آمين..

ـ اسمعا.. سنبقى هنا حتّى الشّتاء، حيث الضّباب والرّياح. لن نراهن على تغيّر الوضع.. سنغادر المكان عشيّة رأس السّنة ثم نتّجه إلى اليونان.. حيث صديقي (خوليو).. ربما نجد والد هدى هناك..

صرخت هدى:

ـ يابا.. يابا.. أرني اليونان.

ـ هنا اليونان وهذه النّقاط الصّغيرة عبارة عن جزر.

منال تصغي باهتمام.

ـ هنا مررنا في (بحر المتوسط)، وجدنا جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها المئة متر مربع، كان صديقي (خوليو) يقول لي ممازحاً: لابدَّ أن تسكن هنا في يومٍ من الأيّام.

منال وهدى تتبادلان النّظرات.. منال تتكلّم مثل قائدٍ عسكريّ يتصفّح مهامّه القادمة:

ـ يابا.. انظر إلى (قبرص) إنّها على خط 35 عرضاً.. المسافة تبدو قصيرة..

ـ تحتاجين إلى أكثر من أسبوع للسّباحة.. ستموتين في السّاعة الأولى.. وستبقى هدى وحيدةً هنا.. فكّري مليّاً.. كيف سنقيم هنا حتّى الشّتاء.. حيث الأجواء الباردة.. هنا كلّ شيء يخيفنا.. هنا القلق الدّائم.. يجب أن نجد مكاناً يُؤوينا.. الخيارات أمامنا ضيّقة.. يا منال!

ـ وجدتها.. ما رأيك أن نكتب المسلسلات والأفلام ونبيعها.

ـ من سيكتبها؟!!

ـ أنا وأنتَ وهدى.

قلت لها باسماً:

ـ فكرة جيّدة.. ربّما نجد أحداً يأخذها منّا وينتجها.

تشجّعت منال وقالت:

ـ سنكتب مسلسل القطّ والهجرة.

احتجّت هدى:

ـ أنا لا أحبُّ كتابة المسلسلات.. سأكتب رسائل إلى أصدقائي:

صديقي العنكبوت

صديقتي الحلزونة

صديقي الجبل

صديقتي الشّجرة

صديقتي منال

صديقي العنكبوت:

أنت لم تخرج إلى الشّبكة في هذا اليوم.. هل أنت مريض.. الكثير من البرغش عالق في شبكتك.. لا تترك برغشاتك في الهواء.. سوف يذروها بعيداً

ـ هل ستضيفين شيئاً يا هدى؟

ـ لا.. أنا الآن متعبة.. يكفي.. أرجوك أن تخرج أيّها العنكبوت.. أنا لا أحبّ أن يتناقص أصدقائي.

صديقتك هدى

ـ صديقي الحلزون:

أنا لا أحبُّ أن آكل جسمك الهلاميّ.. ولكنّ والدي أمر بذلك.. أعتذر للقواقع الفارغةً من سكّانها.. أعتذر

صديقتك منال

ـ صديقي الجبل:

صديق الصّباح الذي يمنحني قامته الجليلة حيث تستيقظ الهموم النّائمة.. وحاجتنا للصّمود في متاهات التّعب.. مرّ أسبوع ونحن هنا في

هــذا الجانــب المهمــل مــن الأرض.. الأرض الباكيــة علــى قاعــدتها المكسورة ومحورها السليب

صديقك بُراق

ـ صديقتي شجرة التّين:

متى تنضجين؟

نحن لم نأكل الحلوى منذ أن انتهت علبة المربّى.. ليس من أجلي.. بل من أجْلِ هدى..

صديقتك منال

ـ صديقي الدّرب:

ضيّقٌ أنت يا صديقي، لا تتّسع لمرور درّاجة واحدة.. للعبور خلف هذا الجبل المسائيّ الحزين..

كيف لي أن أمضي إلى الجانب الآخر.. حيث مخيّم آخر.. حيث الجثث.. ربّما ماتوا من فرح العودة كما ماتت الأخت وداد.. الطّيّبة التي أبقتْ ثوبَ الرّعاةِ نظيفاً نقيّاً.. لم يكن على وجهها شحوب الموت.. بل كان السّلام الأمين للأبرياء..

لم يعد لي في المخيّم الآخر ما تذهب إليه منال وهدى.. من أجل من سأذهب الآن؟.. ألأدفنَ قدّيسينَ جدداً؟!!..

كيف سأترك الطّفلتين؟ أيّها الدّرب الشّقيق الطّويل..

صديقك بُراق

❖ صديقي الشّرطي:

سامح والدي على إجبارك على الغوص في مياهنا الموحلة..

إنّ والدي مولع بالدّرّاجة.. يُمضي معها وقتاً طويلاً كلَّ يوم..

هـي وسـيلة خروجنـا مـن هنـا وحلـمُ عودتنـا.. لـن يعطيـك إيّاهـا بسهولة.. لن يتركها وأنصحك بالابتعاد عنّا..

صديقتك منال

❖ صديقي الحَمَل:

أيّهـا البعيـد في أعلـى الجبـل.. قـل لوالـدتكَ إنَّ هـدى بحاجـة إلى كأس من الحليب

صديقتك هدى

❖ صديقي الجبل:

أنا بحاجة إلى النّوم ولكنّ (وزيرة – أمّ منال) تستيقظ من جديد تتفقّد مظلّتها..

يا وزيـرة .. أين أنتِ الآن

هـل أجـدك بـين أوراق الملامـح الهاربـة.. وأنـتِ تشـربين الأنانـاس وتبتسمين للسّكاكين القادمة السّاحبة مشيمة القدر..

هل تشبهين الموجة الهاربة من كتاب البحر.. البحر الذي تسبح فيه صورتك.. يا أنشودة الماء الأعمى الذي يؤنس الليلك في عيوننا..

زوجك براق

ـ هدى: يجب أن تتدّربي على السّباحة بشكلٍ جيّد ربما نغامر فيما بعد ونسبح إلى اليونان.. كما تحبُّ منال..

ـ يو نان يونان..

ـ منال.. يجب أن نسبح إلى المخيّم الآخر خلف الجبل..

الشّتاء بات قريباً ولا يمكننا البقاء هنا.. نحن نضيّع الوقت بكتابة المسلسلات الفاشلة ونضع الرّسائل في بريد لا يصل إلى أحد..

أجابتني منال:

ـ كتابة المسلسلات أبعدتك طويلاً عن الدّرّاجة وتركتها لي، هل تريدني أن أعود وحدي؟.. ليس ثمّة كهرباء في البطاريّات.. كيف ستعمل الدّرّاجة

ـ حسناً سأتدبر الأمر

منال لا تردّ وتقول لهدى:

ـ هل أنت غاضبة؟! تعالي يا حبيبتي.

هدى تتبعها مثل بطّة ومنال تجرّها وترمي بها في النّهر.. هدى تسبح لوحدها وتخرج..

لم يبق قواقع.. بذور الأكاسيا ذات الطّعم السّكّري باتت يابسة.. التّين لم ينضج بعد.

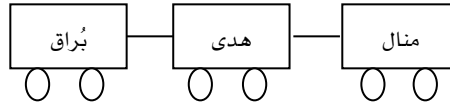

ـ سوف نتحرّك هكذا

منال تعترض:

ـ ماذا هل تريدينا أن نتحرّك بطريقة الرّتل؟؟!

هل نسيت ما قلتهُ لي.. إنّ التحرك بالرّتل فاشل.. ألم تقل إنّ أرتال النّازحين قُصفتْ بالكامل.. عن أيِّ خطّةٍ تتحدّث؟! جِدْ لنا طريقة أفضل نخرج بها من هنا.

ـ منال.. انظري إلى تلك التّلّة الصّغيرة.. تحرّكي إليها، حاولي تقدير المسافة.. خذي المسدس.. هيّا.. سأتحرّك وراءكِ أنا وهدى.

منال تسرع إلى التّلّة.. المنطقة مكشوفة.. هدى ترقبها بالمنظار.. الطّيران فوقنا يهدر.. نحن ننبطح.. نزحف باتّجاه الشّرق الحزين.. الليل يختبئ في أكواعنا.. صوت انفجارٍ شديد يدكُّ التّلّة..

لم أسمع بمثله منذ انتهاء الحروب وشروق السّلام..

يا الله لا تكرّر المشهد.. أما آن لهذا المسلسل أن ينتهي..

يكفينا ما مرّ من أجزاء.. هدى أيّتها البطلة ستعودين بمفردك إلى مكان الدّرّاجة.. هيّا.. تموّهي بالشّجر.. كما علّمتكِ منال.

هدى تتنحّى جانباً وتبكي.

ـ كُفي عن البكاء يا هدى.. لسنا في وضعٍ يسمح لنا بالغناء.. ستأتي منال.. ألم تسمعي صوت خطوتها.. صوتها الذي تستفيق من شجوهِ العصافير والنّمل وكائنات البرّيّة.. عُودي إلى كتابة الرّسائل يا هدى.

هدى تضع المنظار على عينيها وترقب بصمت قدوم منال غير آبهةٍ بالأوامر الجديدة..

ـ يابـا.. يابا.. منال مصابة.. انظر إنّها تعرج..

ـ الصّندوق الأبيض هيّا..

ـ أنا سأذهب.. ابتعد يابا..

هدى تركض أمامي.. أشعر بأنّني عَدّاء فاشل.. منال تحمل هدى على كتفها مثل جنديّ.. مثل أب..

ـ يابا منال.. ماذا أصابك؟

ـ لا شيء.. ربّما رضوض نتيجة القفز.. لا تخف، الشّظايا لم تصبني.. ألم تقل بأنّ لحمنا اعتاد على الشظايا.

ـ سامحيني.. كان عليَّ أن أذهب بنفسي لاستطلاع المكان.

ـ لا.. لا.. لن تذهب.. نحن لا نضحّي بقادتنا.

أبتسم وأقول لهدى:

ـ تدرّبي على السّباحة يا هدى.. ألا تريدينَ أن نذهب إلى اليونان

ـ يونان.. طِشّ.

النّهر مستاء لكثرةِ ما يحرّكونَ سكونه.. يتفلّت الماء من أجسادِ الأبطال.. ومن وجه الخميرة على مائدة الأطفال العابقة بضحك العودة إلى طين الأرض التي لم تكشف سرّها بعد ولم تستيقظ من الفؤوس.. من يعصم التّفّاح.. من يستيقظ في انفعال الماء.. في نومنا على ضفاف (الأمكنة) كأنّنا كرة واحدة (يشوطها) العالم..

منال ترفع قدمها فوق الحقيبة وفوق رأسها هدى تنشد الأغنية الفرنسيّة التي علّمتها إيّاها (توتي بلاس..)

يبدو أنّ إقامتي هنا سوف تطول.. لا يجب أن أسترسل في أحلام اليقظة التي أوصلتني إلى هنا.

سأستطلع التّلّة في الليل.

ـ لن ترى شيئاً.. ليكن استطلاعك للطّعام.. تدبّر لنا ما نأكل..

تذكّرت شيئاً يابا.. هناك وادٍ خلف التّلّة فيه شّاحنة عسكريّة متوقّفة على مسافة كيلومترين وفق منظارك السّحريّ إلى الشرّق من التّلّة.. لا يوجد أحد في الشّاحنة.

ـ هذا خبر جيّد.

منال وهدى تتهامسان وتشيران إلى جهة التّلّة.. هدى ترتدي الخوذة وتطلق النّار في ماء النّهر.. فأهرع مذعوراً:

ـ ماذا فعلتما؟! سيكتشفون مكاننا.

أجابت منال:

ـ هدى تتدرّب على المسدّس..

ـ منال.. هل جننتِ؟.. هل هذا وقت تدريب؟ هاتي المسدس.. واذهبا إلى النوم هيّا.

رائحة البارود تتأرجح في الهواء.. يجب تغيير المكان حالاً

أبدأ بتوضيب الحقائب داخل المقطورة وأحاول أن أبقي مكاناً لهدى..

ـ منال.. هدى.. استيقاظا.. أسرعا.. الدينامو لن يعمل، سنستخدم مَدَاس الرّجل..

هدى نائمة بين الحقائب ومنال شبه نائمة تتأرجح في المقعد الخلفيّ مثل عتاد الجنود.. المكان مكشوف.. أشعر أنّني أخطأت في التّحرّك.. لتكن مشيئة الله.

نَمُرُّ بالحفرةِ التي أحدثتها القذيفة.. يا إلهي.. إنّها عميقة..

ـ منال.. انظري.. هذا ما أحدثته القذيفة.. انظري إلى (القاظان) هذه قذيفة أخرى غير منفجرة سنترك الدّرّاجة هنا قرب الحفرة..

هيّا يا هدى اصعدي إلى ظهري.. تمسّكي جيّداً برقبتي..

وصلنا إلى أعلى التّلّة بعد ساعة وأشرفنا على الوادي.. لمحت جسم السّيّارة في الأسفل.

ـ منال خذي المسدس معك.. ستذهبين إلى الجهة الجنوبيّة زاحفةً..

هدى ستبقى هنا وستقوم برمي الحصى على الشاحنة بحذر..

أمّا أنا فسأتّجه إلى يسار الوادي وسأهبط من هناك

بمواجهة الشّاحنة المركونة.. احذري من الخطأ في التّسديد.

أتجّه إلى يسار الوادي زاحفاً على بطني بحذر.. الشّاحنة أمامي أصبحت واضحة المعالم.. إنّها شاحنة كبيرة تحمل إشارة (U N) الدّوليّة.. سأعود إلى هدى التي لم تكّف عن قذف الحصى..

ـ يابا.. يابا.. الحمد لله على عودتِك سالماً.. منال لم تعد بعد.

ـ سننتظر ربع ساعة ثمّ نذهب للبحث عنها.. من المفروض أن تكون هناك قرب التّلّة السّوداء..

أشرف الفجر على الصّعود.. أصبحنا نرى الأشياء حولنا بشكل أفضل.. هدى تبتعد إلى تلّة مجاورة وترصد بالمنظار.. ثمّ تعود بعد برهة.

ـ يابا.. يابا.. تعال.. منال تجرّ الخروف لوحدها.. خذ المنظار سأذهب إليها.

الشّاحنة على حالها ساكنة لا أحد حولها.. يجب أن أكون يقظاً من كمينٍ ما.. الخروف يقترب وعلى فمه لُصاقة.. هدى تحاول الرّكوب على ظهره.. قالت منال باسمةً:

ـ إنّها نعجة وليست خروفاً.. ستشبعين من الحليب يا هدى..

ـ منال اربطي النّعجة وتعالي ورائي سنقتحم (الكبين) من الجهة اليساريّة.. الزجاج أسود لا يمكن أن نميّز أحداً في داخل الشّاحنة..

سنكسر الزّجاج بالحجارة من اليمين واليسار.. في آنٍ معاً..

تقذفين الحجر وتصعدين إلى ظهر الشّاحنة ومعك المسدّس وبعض الذّخيرة.. إشارة البدء ستكون بعد الانتهاء من العدّ إلى عشرة. دجّ – دجّ.. لا أحد يخرج.. (الكبين) فارغ تماماً.

ـ انزلي يا منال.. الشّاحنة فارغة.. ليتنا لم نكسر الزّجاج..

ـ لا يابا يجب أن نكسر الزّجاج لأنّه عاتم ونحن لا نعرف ماذا وراءَ العتمة.

أرجع مع منال إلى المكان الذي تكمن فيه هدى.. وأقول لمنال:

ـ سنعود إلى مكاننا السّابق ونُمضي ليلتنا تحسّباً لأيّ طارئ..

الشّاحنة ملأى بالصّناديق.. القسم الخارجيّ يحتوي على مواد غذائيّة..

والقسم الدّاخلي يحتوي على أسطوانات أوكسجين و (أجهزة غطس ومعدّات دفاع مدنيّ.. عبوات ماء كبيرة.. خزّان مازوت.. إلخ) انطلقتُ مسروراً:

ـ يا منال.. يا هدى.. تعاليا.. سنذهب إلى اليونان

منـــال تتركـــني مـــع هـــدى وتصـــعد ظهـــر الشّـــاحنة وتفتّش بنفسها..

تبدأ برمي المعلّبات:

ـ يابا.. يابا.. هناك شاي وسكّر وقهوة.. الليلة سنسهر هنا يا هدى.. ستشربين الحليب وستأكلين اللّحم المعلّب

ـ لدينا ما هو أهمّ.. في الغد.. سندخل مخيّم (وداد).. مخيّمنا الجديد بعد نهر خوليو.. يجب أن تتدرّبا بشكلٍ جيّد على السّباحة وخاصّةً هدى.

أمضت الطّفلتان ساعات وهما تفتّشان الصّناديق.

قالت هدى بفرحٍ عارم :

ـ يابا.. يابا انظر.. إنّها أكياس من الشّمع الذي يضعونه فوق قوالب (الكاتو) في عيد الميلاد.

ـ لا يمكننا الاحتفال يا هدى.. الشّمع سيبقى في الأكياس لأن الضّوء يدلُّ علينا..

ـ سيتأخّر الميلاد إذن.. ستبقى الآحاد خالية من روّادها.

الصّباح يأتي سريعاً.

ـ منال.. هدى.. استيقظا.. سنأخذ فقط معدّات السّباحة وبعض الطّعام والماء.. هيّا جهزّا الحقائب.. كلٌّ منكما تتفقّد معدّاتها.. منال ساعدي هدى في شدّ حقيبتها إلى ظهرها.

ـ دعها يابا.. غداً ستحمل أعباء الدّنيا على ظهرها.. دعها (تتعوّد) على المسؤولية.. احمليها (يا فطسانة..) كُفّي عن الدّلع.. غداً ستحملين المستقبل كلّه.

هدى تبكي:

ـ يابا.. إنّها تشتمني وتقول لي يا (فطسانة..).

مع السّاعة السّابعة صباحاً انطلقنا شمالاً.. عبرنا أحراشاً كثيفة.. هدى تتحرّش بالشّجر بغصن من الكينا.. بينما منال تمضغ حبّات الزّنزلخت وتمجّها.. تضحك وهي تمشي خلف هدى.. وأنا أمامهما أستطلع الطّريق.. بعد ساعتين وصلنا إلى النّهر.. جلسنا لنستريح ونستطلع المنطقة.. جنّ ليل النّهر.

ـ هيّا يا هدى ارتدي سترة النجاة من الآن.. عليك أن تفهمي أنّ المسافة طويلة بعض الشيء، يجب أن تسبحي ببطء ودونما خوف.. السّترة ستجعلك تطفين على سطح الماء.. ستكونين مربوطة بالحبل معي.. يابا منال. ستسبحين أمامنا.. مفهوم.. هذا النّهر مشابه للنّهر المجاور لمخيّمنا لكنّه أعرض.. سنمضي ليلة واحدة على الضّفة من أجل التّدريب.. لا أريد أيّ تهوّر.. سنقطع الضّفة دون أيّ عتاد.

ليل النّهر يهبط.. هدى إلى جانبي مثل رجل فضائيّ صغير.. يحلم أن يصعد القمر.. القمر الذي ظلّ يناديها: (تعالي.. تعالي..).. هدى تنام غير آبهة بما ينتظرنا في الضّفّة الأخرى.. منال تستكمل معدّات السّباحة وتستعدّ مثل بحّارة قديمة نسيت كرتها الأرضيّة هناك قرب الدّرّاجة التي تنتظر.. عيناي تغرقان في النوم غير أنّ سمعي يبقى مستيقظاً (كرادار).. ينتظر أيّ إشارة غير محبّبة.. نحن هنا لا نتوقّع الفرح.. شمس الصّباح توقظنا.. إنّها شمس قويّة توحي إلينا أنّنا سنعيش زماناً حلواً.. غير الكابوس الليليّ الذي ما زال ينتظر المفسّرين.. لقد رأيت نفسي واقفاً داخل ساعة.. كنتُ مصلوباً على عقرب السّاعات

ومنال مصلوبة على عقرب الدقائق وهدى على عقرب الثّواني.. يجب أن لا نأبه بالكوابيس لأنّنا نراها على الطّبيعة كلّ صباح.. منال تصرخ: هيّا يا سادة.. سنبدأ.. توكّلنا على اللّه.

منال تبدأ السّباحة وهي مستلقية على ظهرها.. تعطي الإشارات إلى هدى وتتّهمها بالكسل وتعدها بالتّعنيف.

ــ منال لقد اقتربنا.. تولّي مساعدة هدى.. سأسبقكما إلى الخروج.

الضّفّة الأخرى مغمورة بالشّمس الغائمة.. لا يبدو هناك أحد..

منال وهدى تخرجان.. قلت لهما:

ــ لنسترح قليلاً ثمّ نتابع عند الغروب.. هدى أيّتها البطلة.. حقاً لقد كنت مدهشة.

ثم أضفتُ مشجعّاً:

ــ إذا بقيت هكذا.. سنذهب إلى اليونان سباحةً.

صاحت منال:

ــ تعالوا لنأكل هيّا.. السّمك داخل العلبة سَيَبرد

ــ يابا.. يابا ــ صرخت هدى:

ــ ألا يوجد سترة مثل هذه لتلبسها النّعجة وتسبح إلى هنا.

ــ لا.. النّعجة لا تجيد السّباحة..

ــ عندما نذهب إلى اليونان سألبسها سترتي وستسبح معي.

بعد تناول الطّعام قرّرتُ الانطلاق:

ـ ابقيا قرب الشجرة وتخفّيا جيّداً.. سأذهب وحيداً إلى داخل المخيّم.. تنتظران عودتي حتّى الصّباح.. وإذا لم أرجع عليكما أن تعبرا النّهر إلى مكان الشّاحنة

ـ حاضر يابا.

.. كثيراً ما كانت منال تستدعي حضوري إلى المدرسة: منال تقفز من فوق الجدران.. وتحضر (السّندويش) من الخارج.. منال تشتبك مع زميلاتها وتصيبُ إحداهنّ في عينها، ترسل المديرة في طلبي:

ـ ابنتك يا سيّد براق.. فظيعة.. لن تقبلها أيّة مدرسة على وجه الأرض.. إنّها تعارك الهواء.

الطريق يطول بي.. يبدو أنّ المخيّم خارج الكرة الأرضية.. أطلُّ من أعلى الهضبة على المخيّم.. إنّه فارغ تماماً..

جثث الجرائد تتناثر... أبواب البيوت مغلقة والنّباتات ذابلة من العطش.

أعود مسرعاً نحو منال وهدى النّائمتين.. أنادي ولا أحد يجيب، هل بقينا نحن اللاجئين الوحيدين على ظهر الأرض؟

هل بقيت هدى ومنال الفضائيّتين الوحيدتين في هذه المجرّة؟..

أيُّ كرةٍ تحتوينا..

ـ منال.. هدى تعاليا.. لا يوجد أحد في المخيّم.. لا أشخاص.. لا جثث.. لا قطط.. لا شيء.

أطلّت منال برأسها من بين الأعشاب:

ـ ألم أقل لك منذ زمن بعيد.. لقد (عادوا).

هدى تصرخ وترقص (الفلامينغو):

ـ عادوا.. عادوا.

وأنا أستلقي على الأرض أشعر بحرارتها.. بحصاها النائمة..

أبناء بردى

كان عليَّ أن أمضي يومين أو أكثر حتّى موعد عودتي.. لم تكن النقود كافية إلاّ لتذكرة العودة فقط...

يومان ويمضيان.. كنت أتجول في شوارع دمشق بهدوء وكأنني أحتوي صورها داخلي كان لابد لي أن أملأ عينيَّ من نهرها الصباحي الجميل الذي ولدت فيه كان يعبر من بيتنا مثلما تعبر الأغنيات ومثلما يعبر الصباح.. بيتنا الذي فتّته أيادي الورثة السود...

(لم يكن الدانوب رفيق رحلتي الطويلة الدانوب الذي ابتلع الكثير من أصدقائي.. لم يكن لينسيني بردى الساقية الصغيرة التي تغرق فيها أصابعي.

النهر الصغير الجاف من كثرة الخطايا أو من قلّة الأحلام.. إنه يشبه (بويب) السياب، ولكنني لست شاعراً لأجعل له شهرة مثل شهرته لكنني أحبه هكذا (سرسوقة)...

في الليلة الأولى شعرت أن هذا النهر لي دانوبي وحدي كانت (البطانية) التي جلبتها معي من الخارج مليئة بالفراشات والزهور الملونة.. تفضي على المكان الضيق بعض الدفء كانت قدماي تسوقاني إلى الشوارع القديمة إلى المنازل المتلاصقة حيث بيوت الطين

وحيث رائحة الحب... الذي أفتقده الآن.. حيث لا أسرة لي.. ولا إخوة.. لقد أصبحوا فخاخاً في هذه العودة المرّة... لقد تعبت كثيراً.. عليَّ أن أتسلل إلى سريره حالما يهبط الليل وتخفّ الحركة..

الليل لم يهبط بعد.. الناس سيذهبون إلى بيوتهم المختلفة، وسيذهبون إلى صراخهم المسائي إلى طعام العشاء.. إلى النوم.. إلى السهر.. أمّا أنا فمازلت حائراً كيف أتجاوز القضبان الحديدية على ضفّتي النهر كيف أنحدر إلى سريره الملائكي.. الشارع مازال يعجّ بالحركة.. عليَّ أن أنتظر أيضاً.. الوقت مازال مبكّراً.. على سياج النهر الحديدي أجلس مطرقاً.. أتذكر والدي رحمه الله.. ثم أتذكرّ بحرقة والدتي المنحازة إلى أخي دائماً منذ الطفولة.. لأنّه يحبُّ الصراع مع والدي ويصرخ في وجهه دائماً.. والدي الذي أفتقده الآن.. إنه يتوضأ من مياه النهر.. يمسح لحيته البيضاء التي تفوح منها رائحة المسك.. والشمّس المتشعبة بين ثناياها.. هو الآن قد انتهى من الصلاة.. قد أطبق مصحف الياسمين ووضع بين أوراقه أوراق التقويم.. وهو الآن يفتتُ خبزه للعصافير.. ويدقّ بعضه داخل (الهاون) ليضعه في جحور النّمل.. أبي صديق الكائنات..

لقد زارني مرّة في (برلين) كنت أنتظره على الخطوط الألمانية ولكنّ خللاً ما أصاب الطائرة فهبطت في (كليفدن بورغ).. والدي الذي لا يعرف اللغات كيف له الوصول إلى عنواني.. هو الآن على رصيفٍ خارج المطار.. يخرج كتابه الشريف ويبدأ بالتلاوة.. إنّه يدرك تماماً أنّه ليس في مدينتي.. هناك ساعات من السفر الطويل بيننا.. ليس معه هاتفٌ محمول.. إذ لم تكن هذه التقانة موجودة في تلك الأيّام

الغابرة.. إنّه الآن ينام على الرصيف متعباً من سنوات الضياع مازلت في الطريق إليه أحاول أن أجده..

الزوارق التي صنعها لي والدي عندما كنّا في المقهى الدائري في أعلى برج برلين.. سمع بكاء فتاةٍ خلف كرسيّه فانضمّ إليها..

ليل دمشق قد انتصف منذ مدّة وجيزة.. صار من السهل أن أتسلل إلى (منحدري) كيما أمضي ليلتي الثانية..

أرى بصيص ضوء.. يبدو أنه يصدر من سيجارة مشتعلة.. لا أميز الشخص.. أقترب بحذرٍ... أتأهبَّ لمشاجرة قادمة لا محالة..

أصرخ بلهجة عسكرية (مَنْ هناك؟ تقدّمْ..) تبدو أمامي امرأة أو بنت فارعة الطول ترتدي ثوباً أسود مطرّزاً وعلى رأسها (إشارب) ملون بألوان زاهية..

تبدو عليها ملامح الخوف.

- ماذا تفعلين هنا؟

- ما شأنك بي؟..

هل هذا نهرُ أبيك؟.. إنّه ملكيّة عامة يا فهمان

- إنّه مكاني أيتّها (الذّكيّة)!

ترتبك.. تبدو عليها ملامح الاعتذار وتهمّ بالخروج.. أستوقفها معتذراً وأدعوها إلى الجلوس على مصطبة النهر حيث ضوء القمر.. معتذراً إليها عن سوء الخدمة.. تضحك فتبدو ملامحها الطيّبة.. ثم تجهش بالبكاء..

أدعوها إلى الهدوء وأنا أحوقل.

أضع كفّاي على وجنتيَّ وأدخل في الشّرود وهي تروي قصة خروجها مع والدها من بغداد.. والدها الذي مات منذ أيّام.. ظللت مطرقاً داخلاً فضاء البعيد..

قاطعتني قائلة:

- (مالك ـ علامك ـ سولف يا حزين).

- ليس عندي كلمات..

- لابدّ أنّك جائع

- ربما..

أخرجت ضلعاً من (الخرفيش) وبدأت بتقشيره ثم ناولتني إيّاه قائلةً:

- (كُل واسكت.. هذا الحاضر).

بدأتْ تصدر الأوامر.. كنت بين يديها مثل طفلٍ هادئٍ مطيع..

كانت مقبلة على الحياة أكثر منّي.. بدأت تخفّف عنّي ما أنا فيه..

كنت أسألها عن (جيكور) وعن نهرها (بويب).. وصفته لي بساقية صغيرة تشبه النّهر الذي أمامنا.. لكنّه أكثر ماءاً وأقلَّ عرضاً هي لم تسمع (بالسيّاب) كشاعر ولكنّها تعرفه كعائلة..

-(الخلق كلهم عيال الله).

-صدقت.

الصباح يبدأ في دمشق.. الشمس ترسل أشعتها إلى الماء القليل..

الـذي تـنعكس نجومـه علـى وجـه رفـيقتي.. وهـي تغسـل وجههـا.. وترش البقيّة من أصابعها على وجهي النائم..

الأسـاور الذهبيـة في روضـة معصـمها تصـدر صـوتاً جميـلاً يـرنّ في أذني:

- هيّا سنخرج من هنا.. الصّباح بات واضحاً سيرانا المارة ويظنّون بنا الظّن السّيئ.

لم أكن انتبه أنني أشدّها من يدها مسرعاً إلى درج الخروج..

يدها الباردة.. أشدها.. ثمَّ نمضي إلى قمة الشارع..

هنـاك بعـض شـجيرات البرتقـال.. إنّهـا تعرفهـا جيـداً.. تمضـي إلى إحداها وتقطف برتقالة نتقاسمها معاً ثم نمضي مع حقائبنا المعلّقة على ظهرينا.. نمضي هكذا مبتهجين مثل من يحمل جبالاً من الحب.. لكنّ غصّة السفر تبقى جاثمة في حلقي..

يا (زينة) الطائرة ستقلع في الثامنة مساءاً.. كيف سنفترق؟!!

- هـل تـرى الطـائرة في منامـك.. السـاعة الآن تتجـاوز الثامنـة صباحاً سنذهب إلى سوق الحميدية والأموي ، .. ، ..

- القلق يجتاحني.. أحب أن أكون في المطار قبل الموعد بساعتين على الأقل..

- (.. هُو..) انتظر حتى تفتح المحال التجارية أبوابها..

(ألمانية لن تهرب من الخريطة..

- لا أريـد أن أبتـاع شـيئاً.. لـيس معـي نقـود كافيـة وإلا كنـت أقمت في الفندق...

- أعرف.. أعرف.. قل خيراً أو فاصمت...

كنا في باحة الأموي نسند ظهرينا إلى العربة المركونة.. كان الحمام كل ما تراه عيني شبه النائمة.. (زينة) إلى جانبي صامتة تتأمل الجدران.. استيقظت على صوتها العريض:

- قم (يا حزين).. قم.. ستهرب الطائرة..

إنّها تضحك وهي تشدّني من يدي.. يدها الدافئة ترصُّ أصابعي.. ونحن نخرج من الباب الرئيسي إلى ساحة السوق.. نمشي قليلاً ثم ننعطف إلى سوق الصّاغة..

أقفُ خارجاً إلى جانب الحقائب.. أتأملّ ألعاب الأطفال.. ببلاهة أرقب المارّة.. أنظر في الساعة إنها الحادية عشرة.. النّهار شارف على الانتصاف.. قلبي يزداد خفقاناً.. ازدادُ قلقاً.. أنظر نحوها.. لقد خرجت للتّو من المحل.. إنّها تعتذر عن التأخير وتناولني رزمة من النقود:

- (خذ يا وال.. خذ..)

- ما هذا؟!!

- خذها واسكت.

تتركني وتمضي في حركة سريعة أهرول نحوها.. تاركاً الحقائب..

- يا زينة.. يا زينة..

تمضي في طريقها.. أمضي وراءها أقبض عليها مثل شرطيّ:

- تعالي معي..

- إلى أين؟!

- إلى جهنم؟! (زين)

- ما شأنك بي؟!

- أريدّ حمّالاً للحقائب..

- (شنو)

تعالي معي.. أوصليني إلى المطار.. هناك ساحات جميلة تصلح للنوم..

-(يا حنون).. حوض بردى يجلب لي السعادة والأمان..

-هناك سنتحدث على مهلنا...

في الطريق إلى الحافلة.. كنت أتأملّ الواجهات النسائية أركنها قرب الحقائب وأدخل أشتري لها ثياباً جديدة ثم أخرج..

- هل لديك زوجة في بلاد الألمان..

- لا...

- لمن اشتريت الثّياب إذاً؟

- لصديقتي.

- شكلك لا يدل على ذلك؟! أنا لا أصدّق.

- ستعرفين فيما بعد.. هيا إلى الحافلة..

في الطريق إلى المطار كانت زينة تنظر بدهشة إلى معالم الطريق وكنت أسترق النظر إليها وأبتسم مستغرباً..

كيف لهذه الأنثى أن تقرأ وجهي.. كلّ ما أعرف عنها أنّ اسمها (زينة).. عندما نصل المطار.. سأحاول أن أعرف عنها كلّ شيء.. كيف يمكن إقناعها بالسفر.. سأجد صعوبة في ذلك.. وإن رفضت سأبقى معها..

لقد أعجبني هذا التشرد.. هذا التواصل..

(زينة) اسم جميل.. سأتخيلها بالملابس الجديدة.. لقد أحسنتُ الاختيار أنا متأكّد.. إن اختيار الألبسة المناسبة مهنتي.. لا أحد يسبقني في ذلك.. زينة نائمة.. قطرات من العرق تعلو جبينها.. وجهها تبدو عليه ملامح الوداعة.. (لسانها نائم) ربما كانت تخترع شراسة ما لتحمي نفسها..

وصلنا صالة المطار..

زينة مندهشة بالقاعات الضخمة وزحمة الناس..

تبدو عليها ملامح الضجر.. تصرخ في وجهي..

- كيف سأعود إلى المدينة؟!!

- نعم؟.. أيّة مدينة.؟!

- النهر..

- هل معك جواز السفر..

- (الهوايا) في ثيابي الداخلية ولا يمكن إخراجها الآن

- اذهبي إلى الحمامات وأخرجيها هيّا.

- لماذا؟!

- سيطلبونها هنا..

- لكني لا أريد السّفر..

- (ولو).. أخرجيها

أصطحبها إلى باب الحمامات.. أقف خارجاً منتظراً خروجها.. لقد أبطأت..؟!

(كان الله في عوني.. إنّها حادة الطبع، خشنة المعشر.. عنيدة.. لسانها سليط..) في داخلها نخوة عالية مدن بريئة تحاول إخفاءها.. إنّها كنخيل العراق.. إنها تخرج..

- تفضّل..

أخطف الأوراق وجواز السفر من يدها وأمضي إلى مكتب القطع.. قلبي يخفق بسرعة.. أنا قلق.. أرجو أن يكفي المبلغ لوصولنا إلى ألمانيا.. أرجو من الله أن يمضي سفرنا من دون إشكالات..

الازدحام على الكوّة لصالحنا..

لم يكن هناك تدقيق وتمحيص في الأوراق وجوازات السّفر.. الأمور ميسّرة.. لقد استوفت التذاكر كل ما لدينا من نقود.. (الحمد لله)..

- زينة تعالي.. خذي هذا الكيس إلى الحمامات وارتدي الملابس بسرعة.. ليس لدينا وقت..

- لماذا؟!

- إنّ ضابط الأمن يطلبك الآن..

(ملامح الخوف تبدو على وجهها..)

- أنا لم أفعل شيئاً..؟!

- لا عليك أنا معك إلى الأبد.. هيا أسرعي..

أنتظر خروجها برهة.. إنّها لم تبطئ هذه المرّة..

لقد خرجت بسرعة.. كان (الإشارب) الملّون قد أحاط وجهها بالكثير من البهاء.. بدت لي ملكةً من بابل.. الخرز المشكوك على صدر الثوب كأنّه ثمار المطر..

بغداد الملوّنة تزورني بكلّ ألوانها.

- أين الضابط؟!

- تعالي معي، لا تخافي، سنراه في تمام العاشرة ليلاً..

- لكنّك ستسافر في الثّامنة!!.

- لقد تأجّل سفري إلى منتصف الليل.. مالكِ قلقة؟ عودي إلى الثرثرة.

طفلٌ صغير يقترب منّا حاملاً زجاجة الحليب.. إنّه يشدّ زينة.. يبدو فرحاً بالألوان الزّاهية في غفلة عن والديه.. يلتصق بها.. هي الآن تقبّله بينما يتقدم والده ليأخذه بلباقة ولطف بالغين.. فقلت مداعباً:

- دعه يذهب معنا إلى ألمانيا.

ضحك الوالد:

- نحن أيضاً سنذهب إلى ألمانيا.. الحمد لله لقد وجدت رفيقاً لي في طريقي الطويل.

زينة تنضم إلى زوجته.

- لابدّ أنّها (المدام).

- نعم إنها زوجتي.. هي من العراق.

زينة تنظر في عينيّ بدهشةٍ وحنق..... من دون أن تفسد الجلسة..

(إنّها تتوعّدني!!).

والد الطفل يدعونا إلى تناول الطعام.

زينة تأكل مثل ملكة.. مع أنّها جائعة..

أشعر بالارتياح تجاه هذا الرجل الطيّب.. شيء بداخلي يدفعني أن أقص عليه ما كان بيني وبين (زينة) بعدما لمستُ عنده رجاحةً في العقل وسداداً في الرأي – كأنه صديقي منذ أعوامٍ طويلة.. كان لابد من ذلك.. ربما تهرب (زينة..) وأسافر وحيداً.. حتى الآن أنا لا أستطيع أن أتوقع تصرفاتها.. صديقي يأخذ أوراقنا ويذهب إلى مكتب الضابط..

أجلس شارداً فيما سيحدث.. زينة جالسة مع السيدة..

لا أدري كم مرّ من الوقت لكني أشعر بالارتياح والفرح..

الرجل عاد هاشّاً باشاً.. ينادي.. تعالا إلى مكتب الضابط..

(زينة) خائفة..

قال الرّجل:

- إنّه يطلبكما.. قفا هنا..

يتشاور مع زوجته بعيداً.. ثم يأتي إلينا يتناول حقيبة صغيرة، ويمضي بنا إلى مكتب الضابط..

النجوم تصطف على كتف الضابط.. إنّه يبتسم وهو يرحّب بزينة.. ويدعوها للجلوس مكانه.. زينة تبدو فرحة.. وهو يتلو عليها الأوامر.

الرجل يناولني خاتماً أقدّمه إليها..

الضابط يدسُّ (النقوط) في جواز السفر.. مباركاً لزينة..

وهو يصطحبنا إلى سلّم الطائرة..

داخل الطائرة تبدأ الزّفة التي يكملها صفير الإقلاع..

الإقلاع إلى بلاد جديدة أكثر تشرّداً ونهرٍ أكثر عمقاً.

الظّلّ الأخضر

في الحافلة الهرمة رأيتها. كنتُ أجلس في المقعد المقابل تماماً. قدماي تلامسان قدميها حيناً وتبتعدان أحياناً على حسب حركة الحافلة.... أستطيع بهدوء ودونما إحراج أن أعدَّ تعاريج أذنها اليمنى إنها أذن صغيرة ألمح فيها ندى الأصوات ويتدلى منها قرطٌ صغيرٌ عبارة عن حلقة في نهايتها جرس.. الجرس يهتزّ حسب حركة الحافلة.. الصوت الخفيف يدخل أذنيَّ المفتوحتين كالرادار.. أنفها الناعم يشمُّ ببطءٍ رائحة الركاب.. نصف فمها يبدو ملّوناً بشفاهٍ قرمزية بلون القرط.. يدها مثبتة على نافذة الحافلة تعطي جسمها ثباتاً بحيث لا يمكن للحركة أن تؤثر على توازنها..

قدماي ما زالتا تتداخلان في قدميها دون أن تلامساهما.

تتوقف الحافلة بشكل مفاجئ.. يقفز رأسي نحو رأسها فيصدمه بقوة.. تضع كلتا يديها على رأسها.. سريعاً أقدّم إليها اعتذاري:

-آسف.. لا تؤاخذيني يا آنسة..

تقبل اعتذاري على مضض واستهجان تبدو كقمر منكوب..

هي ما تزال على سيرتها الأولى تسند يدها على نافذة الحافلة.... يبدو شكلها أمامي كاملاً بين الصعود والهبوط.. تقفز في مخيلتي

كل الصور كأنها تلقي في داخلي (قنبلة).. تهتز في داخلي المدن.. تختلط بأشلاء حبٍّ قديم.. يتزركشُ في داخلي وجهها المدّور.. مدينة الأحلام.. عيناها تنطقان بما لديها من طموح.. دائماً أذنها اليمنى أمام عدسة نظارتي إنها ككهف صغير أعدُّ مُدرّجاته. هنا في المدرج العالي سأزرع شجر السرو.. وفي المدرج الثاني سأزرع الكرمة والثالث أزرع الأعشاب.

الأحلام تغور في فوهة الذاكرة.. الكهف يتسع أمامي.. أنا الآن خائف.. لا أريد أن أدخل هذا الكهف وحيداً.. لتدخله الأرانب أو الفراشات الصامتة.. كيف لي أن أقرأ ما في الكهف الصغير المؤدي إلى كرة الرأس المحشو بالأحلام والحب والمغامرة.. الدراسة.. المستقبل..

هي تنظر نحوي كاملةً تتزركشُ في عينيَّ.. إنّها خليط مرهف من هواء الأنفاس المعطرة بالهاواي... أحاول حبس أنفاسي كي لا أتنفس في وجهها كي لا أزعجها برائحة الدخان، تترا كم في رأسي الذكريات وتعب الأوردة المنتفخة بالأدوية والهموم التي أدركتني باكراً، وأنا ما أزال أرتدي عباءة الشباب..

أيقونتي الآن تسوي معطفها الخاكي اللون.. أنظر نحوها مباشرةً كأنها مقاتلة قديمة، حجمها صغير، نظراتها جادة.. يبدو أنها نسيت تماماً آثار الصّدمة في أول الرحلة..

بيّارة الروح تتثاءب.. تفتح فمها فتبدو مغارة الكرز الصغيرة.. الأسنان الثلجيّة..

المسافة بيننا قريبة جداً لا تتجاوز الأشبار ولكن اللقاء بعيد.. بعيد خلف صحاري الأحلام.. ما أكثر اللحظات الجميلة التي تضيع في حياتنا..

إنّها تهمُّ بمغادرة الحافلة، سأغمضُ عينيّ... لا أريد أن أراها تذهب في الزّحام..

* * *

جاء يوم الخميس حيث أنتهي من عملي باكراً.. ركبتُ الحافلة عائداً إلى منزلي.. شعرت بأن قلبي مقبوض.. كان مقعدي بعكس الطريق.. هكذا حظّي دائماً..

نظرتُ إلى وجوه الرّكاب.. إنها أمامي.. يا إلهي إنها تشبهُ الفتاة السابقة التي صدمتها برأسي في الأسبوع الماضي.. ولكننا نتبادل المقاعد.. وجهها الملائكي ذاته.. لكنّه أكثر إشراقاً وحيويةً.. بدا عليها القلق من نظراتي فصارت تشبّك أصابعها تارة وتصلح هندامها تارةً أخرى.. تشدُّ كُمّيْ كنزتها. إنّها في انتظارٍ ما.. بعد قليل تذكرت عدم دفعها للأجرة.. فتحت جزدانها على عجل لتخرج النقود.. فسقطت محتوياته على أرضية الحافلة..

(النقود.. المفاتيح.. أحمر الشفاه.. قلم الظل الأخضر.. الخ).

تطوّعتُ لجمع أشيائها المتناثرة.. ناولتها المفاتيح وبعض قطع النقود قائلاً:

تفضلي هذا ما استطعتُ جمعه.. أحمر الشفاه انحشر تحت (بطارية الحافلة) وقلم الظل الأخضر عالق خلف مقعدك.

ابتسمت لي فظهرت غمّازتان جميلتان على خدّيها وقالت:

-لا يهم: شكراً لك.

ثم مدّت كفّها نحوي فظهر فيها ظرف دواء.. يبدو أنه قد سقط من جيبي فشعرت بالخجل...

ظلت باسمة بغمّازتيها الحلوتين..

حاولت متابعة البحث عن الأشياء المتناثرة.. مددتُ يدي تحت (المدّخرة) فحاولت أن ألتقط أحمر الشفاه.. لكنّه يتدحرج...

قلم الظل الأخضر خلف مقعدها ينشر ظلاله في فضاء الحافلة.. الناس في الخارج يبدون كأشجار تمشي... الأخضر يلّف مقعدها من جميع الجهات.. يرفعها إلى الأعلى.. تمدُّ نحوي كلتا يديها محاولةً أن تمسك بكتفي.. إنّها خائفة.. إنها تطير في فضاء أخضر بديع تشدّني إليها..

ما الذي يحدث؟! ما الذي يحدث؟!

يزداد وجه آنستي إشراقاً. أضواء حمراء.. رائحة حريق منعشة تملأ المكان الذي يتحول شيئاً فشيئاً إلى اللون الأحمر.. الأرض تدور بي.. أحاول أن أكون متماسكاً.. الدواء ليس في جيبي نوبة الصّداع ستفسد المشهد.. لم أعد أرى وجه آنستي.. الأضواء الحمراء تحجبها عنّي.. أنظر من النافذة.. الناس في الشوارع يرتدون اللون الأحمر.. تزداد حيرتي.. حركة غير متوقعة من السائق تجعل الحافلة تهتز.. من جديد يصدم صدرها رأسي.. فيسقط السلسال الذهبي من جيدها ويتدحرج تحت المقعد.. نبحث عنه معاً.. إنه تحت مقعدي..

إنَّ اسمها منحوتٌ عليه: (بيسان)..

أناولها إياه يهبط في كفّها مثل شلال....

القدر يخلّصني من حيرتي..

حالة غير عادية تصيب الحافلة فتتمايل يمنةً ويسرة...

الساعة تجاوزت الثانية عشرة.. الحافلة متوقّفة... ابتسامتها التي تتراقص بين الشجر.. بنطالها الأزرق غائب عن أفق السماء..

ميناء خصرها الشجري عارٍ.. ليس فيه سفن المشمش.. قميصها الأحمر نائم في سطح النسيج إنها لحظة انكساري وانتشاري في الزمن المعطوب.. إنها (بيسان) جرحي المفتوح..

أبقى جالساً على مقعد الحافلة.. أعتّق انتظاري.. الزمن يفلحُ روحي.. أصابعي ترتجف.. إنها تدقُّ على أسناني آه

لو أنادي بيسان تعالي.. بيسان.. تعالي

أيُّ الفصول تجتاحني.. ليتني خبّأتك في جيبي..

يا مدينة الفرح

ليتني قط أدخل شوارعك في أيِّ وقتٍ أشاء

أسرعي بيسان.. أسرعي.. الحافلة ستسير.. الناس ينتظرون..

الزمن سوف يقلبنا مثل صفحة مهملة..

هيّا بيسان تسلّقي الحافلة.. هيّا.. إنني أنتظرُ شيئاً ضاع منيّ.. أنحني لأدور حول نفسي.. أدور وأدور.. ربما تتفتح الينابيع تحت قدميّ.. فأراك تنبثقين مثل ماءٍ قديم.. تنزعين قناع الصحراء الأصفر.. كي

تخرجي ماءً ممشوق القامةِ يعتذر لهيكل اليباس.. غيابك يرهق عيني. أية شجرةٍ أمتشق الآن.. على أيّةِ ريحٍ ساكنةٍ أقبض.. أسرعي بيسان أسرعي. الحافلة متوقّفة.. العاشقون على الدروب ينتشرون.. يزّينون هذا المساء بصراخهم وأنا أحتضن الصحراء.. أنتبهُ إلى نفسي.. لا يستحسن أن أبدو هكذا.. أجلس على مقعد الانتظار أجلسُ من جديد.. رأسي يبدأ الدوران.. أفتش في جيوبي.. لا أجد الدواء لا أجد (بيسان).. بعد دقائق ستأتيني نوبة الصّداع.. صراخٌ في رأسي قد شوّه هدوء الحافلة.. أرى الأيام عارية.. والناس من حولي يتمتمون بطلاسم وأحجيات يشكون الظلم إلى المقاعد الخالية.. قنابل القهر تدوّي في قبّةِ رأسي وتطلق الرصاص على الباقي من الأحلام.. الوردة بدأت بالذبول.. يدها تُلَوِّحُ لي بمنديلٍ أحمر.. شفتاها ترفعان أشرعةً لابتسامةٍ بعيدة.. كانت الحافلة متوقّفة.. كان الزمن يقلبني مثل صفحة مهملة في انتظار حافلةٍ أخرى.. في انتظار حادث آخر لزهرة مسافرة.

الإحصاء

ما أورثني أبي سوى المرض والقناع الموحل، وأنا أتقيّأ هذه الوظيفة وأصرخ.. إحصاء.. تعود إلى فمي كل الأسماء التي نسيتها لألهث في جمعها من جديد.

عند مداخل الحيّ الأربعة أرصد روحي.. أيُّ قدرٍ أعادني إلى هنا.. أي قدرٍ فرض عليَّ أن أدخل كلّ بيتٍ لأحصي الخراب.. لقد كلّفني المكتب الرسمي بالإحصاء العام.. كان هذا الحيّ من نصيبي. كانت الأيام قد كتبت سيرتها على وجهي المشوه بالثآليل، لم أكن لأرفض. إن التوزيع تمّ بالحاسوب. أحمل أوراقي أقرع هذا الباب، إنّه رقم (1).

أدلف إلى الدّاخل حيث غرفة الضّيوف، خزانة من المرايا تتربع في صدر الغرفة عليها صورة محاطة بالسواد لشاب في العشرين من العمر.. تأتي العجوز بدفتر العائلة أفتحه أمامي.. أنقل أوراقه المتساقطة.. إنها الحاجّة (نظيرة).. تدعوني إلى طعام الفطور.. أعتذر إليها لكثرة العمل وضيق الوقت، لكنّها تصرّ وتقسم أنّني لن أغادر حتّى أتناول الفطور..

كانت تسرد لي سيرة العائلة.. (هيام) تزوّجت في لبنان و(روحيّة) تزوّجت في دمشق.. (صفا) استشهد في العراق.. (كمال) في السّجن ولا أعرف إن كان حيّاً أم ميتاً.. بدأت الدّموع تسيل.. وهي تنشد:

(لقعد على المنطار والعين/ وبركي حباب القلب تورد على العين/ ويا حلفت الميما.. ما تجرّ الميل بالعين/ وتحضر فرح وإنتو غياب..).

شاكراً للعجوز السّمحاء، أحمل ذكرياتي وأمضي إلى منزلٍ جديد.. يخفق قلبي وأنا أقرع باباً جديداً.. أدخل الآن.. إنّها شلال من الجمال.. إنّه منزل (صفاء) الأرملة حيث دفتر العائلة ذو الشّخص الواحد الذي يصون أغنية الحبّ للرّاحل الوحيد (وليد).. كان وقتاً مختصراً في الغرفة ذات السّتائر الملوّنة والعصفور الأصفر داخل القفص، لقد نبّهني إلى وجوده بزقزقةٍ ناعمة، وأنا أطوي السجلّ أغادر تاركاً في عينيها دمعة حائرة منعها الحياء من الخروج..

أنتقل إلى منزلٍ آخر هنا (مقام الكرسيّ) هنا يصنع كل شيء..

(هَوْ.. هَوْ) أصوات الكلاب تتعالى.. بينما يفتح لي رجل في العقد السادس، طويل الشعر واللحية، ثابت النظرات.

ـ من أنت؟!

ـ أنا موظف من الإحصاء، نحن نقوم بتعداد السكان يا سيدي.

ـ تفضل؟!

ـ (دفتر العائلة)!

ـ لا عائلة عندي.. اسمي (تُبَّع).

أصابعي ترتجف وأنا أنقل المعلومات.. خمسة من الكلاب تتفحصني.

ـ هل ستشرب شيئاً.

ـ لا.. لا.. شكراً عليّ أن أغادر.

(تبع) يزم شفيته موبخاً إياي.

أعتذر إليه وأبقى جالساً في انتظار القهوة.. أمامي صورة لأنثى شابة فوقها صليب من الخشب، إلى اليسار تمثال للعذراء ملون بالأبيض والأزرق السماوي..

الكلاب الخمسة تغادر الغرفة.. يبدو أنها ألفتني..

(تُبَّع) يعود بالقهوة.. مرحباً بي.. يبدو صوته متهدّجاً:

ـ تعرف يا أستاذ، منذ زمنٍ بعيد أشتهي أن يدخل بيتي أحدٌ ما، ضيف ما أتحدّث إليه..

ـ لا عليك يا عمّ سأزورك باستمرار حالماً أنتهي من مصيبة الإحصاء.. سيكون بيننا جلسات طويلة.

أشعر بالإرهاق.. سأكمل في الغد.. أنا غير راضٍ عن سير العمل. سأحتاج إلى ضعف المدّة.. أصل منزلي في العاشرة ليلاً.. أستقبل السرير وأنام مثل رقم مهمل.. الظلام يعمّ الغرفة.. أستيقظ في الصباح أتلمس زجاجة الماء. أصبها في فمي دفعة واحدة، ثم أعود إلى النوم.. لا يمكنني الإحصاء في هذا الصباح الباكر، الناس نيام، سأنتظر حتى العاشرة صباحاً.. سكون.. سكون، لا عصافير تزقزق.. لا بهجة قادمة.. لا نشيد.. لقد تعبت روحي من سدانة الظلام.. أمضي إلى الفرن، أشتري رغيفاً ساخناً وأعود أعدّ أطاريف الرصيف. أُخرِجُ الدّخان من منخرٍ واحد.. سأنام حتّى العاشرة..

جرس الساعة يوقظني، توقظني الساعة الداشرة.. أحمل أسفار السجل وأمضي.

لا أحد في هذا المنزل دعاني إلى الشاي أو القهوة. أقرع جرس المنزل (9) تستقبلني طفلة جميلة.

ـ بيت من هنا يا صغيرتي؟!

ـ بيت (أبو زبيدة).

أنفجر ضاحكاً، تخرج أمّها وتقول لي: ـــ ماذا تريد يا أخ؟!

ـ أنا من المكتب الرسمي للإحصاء (دفتر العائلة إذا سمحت).

ـ دفتر العائلة محجوز في الجمعية الاستهلاكية.

ـ متى يأتي؟

ـ بعد أسبوع..

ـ شكراً.

الباب يغلق بعنف، جعلني أصاب بالإحباط.

أمرّ عبر سيباطٍ طويل كأنني أحصي الحجارة المتطامنة، أعجب كيف تمّ رفع الصخور الضّخمة، أنعطف إلى اليسار حيث (جادّة) طويلة ضمن زاروب لا يتجاوز عرضه المتر الواحد... هنا تضيع الأرقام، إنّه الرّقم (10) عنوان الجادّة الكبيرة، أبدأ بقرع الباب الأول.. هو باب صغير فوقه قنطرة من الحجر الأسود، لا أحد يخرج، أقرع الباب المقابل، صدري يضيق يجتاحني النّزق، أقرع الأبواب المتقابلة المتشابهة.. هل أنا في جادة مهجورة؟ في منتصف الشارع الضيق أضع حقيبة السجل تحت رأسي وأمضي في شرود طويل، برودة الحجر تتسلّل إلى عظامي.. سأصاب بالمغص.. لا بدّ أن يمر أحد من هنا، أصرخ بملء صوتي: إحصاء. ليس هنا إلا الصّدى..

أين هم؟ هل هاجروا دفعة واحدة؟ هل صاروا تراباً؟ هل هم نائمون؟ يأخذني النّوم بين الأسئلة.. أستيقظ على نسمة باردة.. أسترد صحوتي.. أنظر في طول الشارع وعرضه.. الشمس تقترب من الغروب، لا بدّ أنهم يشعلون الأضواء.. كل النوافذ عاتمة، لا ضوء يصعد منها.. أسند رأسي إلى بابٍ خشبيّ وأتابع نومي وأنا أحتضن الحقيبة السوداء.

الليل يهبط في الجادة، أصرخ بملء خوفي إحصاء..... صاء.. حاء.. باء.. كأن الحروف تستدعي صداها. إنّهم يصرخون دفعة واحدة إحصاء، يحيطون بي إحاطة السّوار بالمعصم، دفاتر العائلة الممزّقة تتطاير أمامي.. يضربونها في وجهي: تبّاً لك أيّها الموظّف..

أصرخُ يا (تُبّع) يا حاجّة نظيرة تعالوا.. تعالوا.. نباح الكلاب يجعلني أشعر بالخوف. إنّهم قادمون يقفزون في الهواء.. (تُبّع) يهرع نحوي: لا تخف.. أنا معك، أنت رجل طيّبٌ تعال معي. الحاجّة نظيرة توصي (تُبّع) بي وتدعوني إلى العشاء.. الحمد لله لقد هربوا..

ـ يا أخ (تُبّع) ما الذي يجري...؟!

ـ لا عليك.. كان عليك عدم الدخول في (جادّة غزة)؟!

ـ لماذا؟!

ـ إنّها مسكونة بالعفاريت..

ـ الحمد لله، لقد انقضى الأمر على خير.

أستيقظ في يوم جديد، أقف عند الباب رقم (11)، إنّه باب حَمّام يخرج صبيّ الحمّام مستقبلاً إيّاي:

ـ تفضّل..

أدلف إلى القاعة حيث البحيرة المثمّنة ذات النافورة الجّافة تتربّع وسط الحمّام؛ وحولها (الأراغيل) الصّامتة...

ـ تفضّل.. تفضّل، المعلّم أمامك.

ـ السّلام عليكم.. أنا موظّف الإحصاء.

ـ تشرّفنا.. لقد دفعنا كلّ الضرّائب والمسقّفات والصّحة.. هاكَ الأوراق.

ـ عفواً، أنا لا علاقة لي بكلّ هذه الأمور.

ـ عجباً ماذا تريد؟!

ـ دفتر العائلة من أجل الإحصاء.

ـ الحمّام خالٍ لا زبائن فيه؟!

(صبيّ الحمّام يأخذه جانباً ويهمس في أذنيه).

ـ لا عائلة عندنا يجب أن تفهم.. نحن اثنان فقط..

صبيّ الحمّام يقترب منّي: ـ تعال معي.. ما رأيك بكأسٍ من الشّاي يعيد لك النّشاط..

ـ يا معلّم يجب أن تصغي إليَّ.. أنا من المكتب الرّسميّ للإحصاء.. نحن نقوم بتعداد السّكان فقط.. هذه مهمتي، انظر إلى هذا السّجل..

ساعدني في مهمّتي أرجوك.. يعني ليس هناك ضرائب جديدة.

ـ تفضّل بالجلوس.. شاي يا ولد.

لا تؤاخذني يا أستاذ.. الصّحة.. البلديّة.. النّظافة.. كلّ يوم فيلم جديد.

ـ اللّه المستعان.

أملأ البيانات وأمضي مستعدّاً للخروج.

معلّم الحمّام يقسم عليَّ ألاّ أخرج إلاّ بعد الغداء لكنّني أخرج محتجّاً بضيق الوقت.

النّاس يجتاحون الأرصفة ويأكلون سندويش الفلافل.. العناكب تهاجمهم.. يهربون مثل كرات.. الأطفال يتدحرجون.. (السّندويشات) غير المكتملة تملأ الرصيف.. (الكلاّبات) تقيّد دواليب السيّارات.. إنّهم يشوّهون المنظر السياحي.. المنزل رقم (12).. إنّه مخفر المصادرات، (الكلاسين والسّوتيان) المخالفة للمقاييس العالمية تملأ قاعة المخفر.. الكراسي الحديديّة المنزوعة القشّ.. لا يمكنني الإحصاء في هذه الضجّة.

أحدُهم يُضْرَب: (شهادة المنشأ يا كلب.. السّجلّ التّجاري.. السجلّ الصّناعي.. السّجلّ الفضائيّ.....).

السّاعة تجاوزت السّادسة وأنا أتوجّه إلى المنزل (13) وأقرع الباب.. على باب المنزل عربة صغيرة مركونة يبدو أن صاحبها بائع جوال. أقرع الباب من جديد وأنا أتأمّل العربة.. إنّها تشبه عربة عمّي سعيد.. كان يبيع عليها (المسكة).. سيّارة التّكسي تقف عند الباب، ويترجّل منها رجل في العقد الخامس وهو لا يستطيع الوقوف..

أهرع إليه.. أحمله إلى الطّابق الثّاني.. أساعده في تنزيل البضاعة. في منزله أجلس لاهثاً متعباً.. أملأ الاستمارة للرّجل الوحيد. أغلق عليه الباب وأمضي إلى منزلي.. مستعداً ليومٍ جديد.

المنزل رقم (14)

إنّه صالة سينما؛ سينما الفيلم الواحد ـ لا زحام ـ ليس هناك إعلانات ملوّنة.. الموظف العجوز داخل الكوّة يطلب مني أن أقطع التذكرة، أخبره بأنّني من مكتب الإحصاء.. أدلف إلى الصّالة، شخصان متلاصقان في الصفّ الأخير.. شخصٌ هناك في الصّف الأوّل.. الصّالة مضاءة.. الجوّ بارد.. أتجوّل فيها وأتأمّل الجدران.. يجتاحني البكاء.. هنا كتبت ذكرياتي.. هنا كان هروبي الأوّل.. كنت عاشقاً للسّينما.. للضّجيج الجميل.. لجيلنا الغارق في العزاء.. هنا جلسنا أنا وأخي كامل.. كامل الهارب من غضب أبي، كامل المحترق في داخلي حتّى النهاية. أصعد الدرج إلى (البلكون).. خيال عاشقين في المقعد الأخير.. في المقعد الأوّل خيال رجل عجوز يأكل (السّندويش) بقرف (هيهْ.. ماذا تريد؟ أنا لم أشعل سيجارة.. أنا لا أدخّن..) لقد ظنّ الرجل أنّني من جماعة مكافحة التدخين.. لم يكن محور اهتمامي وأنا أتابع بعضاً من فيلمٍ لا أعرف أوّله.. يضعون مشهداً مثيراً ويقطعون الفيلم يشعلون الأضواء.. السّتائر البالية يجرّها العامل وكأنّه يريد أن يغلق المسرح.. أملأ استمارة الموظّفين.. أهمّ بالخروج وأنا أتعثّر بزجاجات البيرة الفارغة.. أدلف إلى الخارج حيث المواقف المأجورة والموظّفون ذوو الملازم الحديديّة التي تقيّد السيّارات..

غداً يوم عطلة.. سأحاول أن أمضي يوماً في الحديقة العامة.. أفاجئها في الصباح.. اليمامات تملأ الأرضيّة.. الحديقة خالية.. ليس هناك روّاد.. النّاس نائمون.. الشّرفات المطلّة على الحديقة ساكنة. هناك من ينشر الغسيل في الطّابق العاشر..

أجـرّ أذيـال الخيبـة وأعـود إلى مقعـدي أتمـدّد.. أتأمّـل السّـماء الصّافية.. الخائفة على الأحلام..

أن تـدخل روحـي في كـلّ بيـت.. عملـي في الإحصـاء جعلـني أنسـى (الأناقة)، لم أنتبه إلى نفسـي في الطـرق الهاربـة أمـامي وكـأنّني أجمـع الأصوات.. لقد أصابني الضّجر.. آه متى أنتهي من هذا العمل القميء..

النّاس يحملون الخبـز ويـذهبون إلى زوجـاتهم.. أنـا الوحيـد الـذّاهب إلى المخدّة.. لن أنـام بـاكـراً.. حيـث تختلط الوحـدة بلغـة الشـارع مازلـتُ أسـأل نفسي:

ـ ماذا عليَّ أن أُحصي؟

هل أعدّ الأرغفة في أيدي الناس؟

أم أعـدُّ الابتسـامات الصُّفر في هـذا الصّباح البـائس؛ حيـث ترقـد نفسي بين الطّحالب والأعشاب الممزّقة رافعاً أرقامي للتَّاريخ.

غادرت الحديقة وعدت إلى منزلي.. كـان علـيَّ أن أنـام بمقـدار مـا في داخلـي مـن غضـبٍ وحـزنٍ.. بمقـدار طفـولتي الـتي تشـتعل وتنـزلـق إلى داخلي لتختار الصمت، حيث النعاس اليومي الذي لا يغادرني وأنا أتّجهُ إلى المقبرة، إنّها الرقم 21.

أحصي الأعشاب الضّالة والأظافر الطويلة؛ وأوراق الشجر الخائف من خريف قادمٍ.

من يعزّيني بشـوارعي.. بعصـافيري الـتي التهمتهـا القطـط.. بـأرانبي الهاربة....

هنا زقاق وردة.. هنا بيت ريتا.. هنا بيت غزل زوجة توفيق.. هنا دكّان عزّو.. وقربها أبو حامد.. هنا.. هنا.. هنا... لماذا تستيقظون هكذا دفعة واحدة..ناموا.. أريد أن أنتهي من الإحصاء، وأمضي مغلقاً أبوابكم...

أنفاسي تتقطّع وأنا أنظر في المرآة؛ عساني أجد فيها طيفاً قديماً لحبٍّ عابر يسخّن الكلمات الباردة بعيداً عن جسدي الذي يركض في كلّ اتجاه، حيث الوجوه المتزاحمة.

أخرج الخاتم من جيبي.. أدقّه على الورق يبرق كوسام مكسور الحواف؛ كقمر متآكل فيه البقيّة من نظرات العشّاق المسافرين في رؤاهم.. في قلوبهم الملأى بالوحشة الدائمة.

أيّتها الأزقّة في قلبي.. أيّتها الشّرايين التي تضخّ الدّم في شوارعي يكفي.. إنّني أقترب من منزلي.. حيث ولادتي.. في طيّ النسيان.

ولادةُ التُّوت

جالساً أنضّد روحي وأقسّمُ جسدي بين الأحبّة والطّريق الطّويل:

فمي: ستأخذه الهالة.

لساني: ستقطعه الحقيقة.

جسدي: دائم النزّوح نحو الشّهوة المارقة.

أصابعي: أصابها الورم من كثرة الكتابة والتّصفيق للغائب المفرد.

آهٍ لو أتخلّص من أجزاءٍ لا تلزم روحي المبعثرة بين ملايين الأشياء التافهة البعيدة عن السّماء الدّافئة والرّبيع المستقلّ..

يوم ولدتُ.. (زعقتُ) في كفّ القابلةِ فكانت شاهدة الخروج والنّاظرة الوحيدة لجسدي الأعور.. كانت الكاذبة الوحيدة في بدايتي. كان جسدي أحمر كالنّبيذ عند خروجي الأول من باب التّكوين نحو وعاء الماءِ السّاخن والزّيت وماءِ الشّبّةِ و(الورنيش) لا أدري كم (تعبت) القابلة عندما قدّمت لي اعتذارها عن طردي قبل أوان الولادة.. عن تهريبي من باب التّكوين إلى فخِّ الوجود. لقد كانت مسرحيّة صاخبة.

المسرحيّة الصّاخبة

كانت القابلة تكتب شهادة الميلاد بسرعة ولا تنبس بكلمة بعد أن آوت النّقود في سروالها الدّاخليّ. كنت الرّقم (6) في سجلّ العائلة.

أمّي (الممغوصة) لم تختر لي اسماً بعد. لقد بدأت رحلة المشاجرة الطّويلة مع والدي المرتفع الضّغط، نضجت أعضائي بسرعة مذهلة أخافت (مطهّر الأولاد) الذي حزم الصّرة وبدأ بالهروب تاركاً مُخلّفات الرّجولة في منفضة السّجاير..

حتّى اللحظة لا شيء جديد بخصوص التّسمية لقد بقي الرّقم (6) صرخت والدتي لو أنّ القابلة سمّتك الرّقم (7) كانت السماء راضيةً عنّا.

لقد وقعنا في المحظور، لن تدخل الشّمس من نوافذنا والبركة غادرت ربطة الخبز الصّباحي... لم يعد يكفينا شيء.. إنّنا في هلاك مستمرّ والقادم أخطر.. المطر غادرنا هذا العام وداهمنا البرد الشتائيّ الطّويل.. لتصمت يا مولود الغفلة إنّ النّحس قد حلّ بديارنا.. والدي لا يغادر دور العبادة وهو يدعو الله...

لقد نصحهُ أحدهم بالزّواج مرّة أخرى قائلاً (غيّر عتبة بيتك يا هذا). والدي لم يستطع أن يخفي فرحته القادمة. ظلّ ملتصقاً ببخار المطبخ وهو يقنعُ أمّي الغارقة في تقشير البصل بأنّ الزواج مرّةً أخرى سيجلب الرّزق والبركة إلى المنزل الفقير، وسوف يفكُّ النّحس كما تفكُّ القابلة سروالها الدّاخليّ المملوء بنقود الولادة أمام زوجها المستعجل الذي يشكر الله على نعمة التّكاثر.

كانت نظرات الآخرين تلاحقني وأنا عارٍ ألعب بلحمي.. أرمي بزجاجات الحليب الكاذب جانباً. أحلمُ بعودةٍ ما إلى مستقرّي الأوّل.. روحي تصطاد الدّباب الدّائم التّحليق فوق وجهي.. نظراتي تتصاعد نحو قمرٍ داكن الصّفرة نحو مساءٍ يفتح شفتيهِ وهو يفترس عيون العوانس التي لا تفارقني.. تلك التي تداعبني في انشغال أمّي

الدّائمة الغياب عند الجارات.. أبي الغاضب يستر عورتي المكشوفة.

طوال اليوم يدهن وجهي بعصير القهوة وينادي جاء الليل..

تهرع العائلة للنّوم..

لقد كان والدي يرّتب الليل والنّهار على مزاجه الخاص..

ضمن النّصائح الدّينيّة.. وأنا يجتاحني الغبار وتتراقص حواليَّ الأرقام:

1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 كأنّني مركز المتاهة في هذا الكون المجهول.

1	2	3	4	5
وحدي	أنا	أنا	أنا	أنا
	وأمّي	وأمّي	وأمّي	وأمّي
		وأبي	وأبي	وأبي
			والقابلة	والقابلة
				والزّوجة القادمة

أنا وأمّي وأبي والقابلة والزوجة القادمة والرّقم الذي يسبقني في الوجود.. كلّنا عاصفة في الوجود المؤقّت بالدّيناميت في مسرح روحي الموجودة في جسدٍ ينام على خرقةٍ بالية... الجميع ينخرون في روحي... فأقول هكذا هي نخرتي السّادسة.

السّادسة

إنّها السّاعة التي أستيقظ فيها في كلِّ يومٍ يضاف إلى كتلة الجسم ويزيدُ في الوزن النّوعي للجرم الحي، هنا تولدُ الكلمات الضّجرة وتتحدرُ في السّلّم المؤدّي إلى باب الخروج خارج الدائرة حيث لا زمان.. ولا مكان.. ولا أغنياتٍ جديدة للشّمس الخائفة والرّبيع النهائي للأشجار الواقفة فوق البيضةِ الأرضيّة التي يخرج منها الحمام والبطّ والإوزّ الجميع في الدّائرة القابلة السّاحبة هواء وجودي من ذاكرة الوالدة....

ذاكرة الوالدة

تستطيل إلى السّماء وتعلو القباب حيث الغبار الأسود يدخلُ في المنازل المجاورة ويختلط بالبياض الشّاهق.. يترك النّدبَ السّود فوق الشّراشف والوسادات التي تجمع رأسين أو ثلاثة أو أربعة.. أو خمسة.. يهرع الجميع إلى تنظيف (النّدب) ويجمعون السّباب والشتائم لمنزل الوالدة الذي يقذف (الشّحار)... والدي لا يعيرهم اهتماماً في حمّامه المستمّر الاشتعال حيث النّار الموّارة نار الزّوجين المتقابلين في صدر أبي ذي الأضلاع المنحنية القاضية..

ما تزال أجزائي متماسكة في زاوية الغرفة. والدتي تخشى أن أداس في العتبة لذلك تأخذني إلى الزّاوية مع الذّباب الطّائر والعناكب الهاربة..

في الزّاوية أناجي روحي وأمصّ أصابعي. أقتاتُ برؤيتي لمداعبة العوانس..

والدتي دائمة الصّراخ والعويل وخالتي تردُّ الصّاعَ صاعين وأنا أمجُّ الحَلمَة المطّاطيّة.. إنّها في فمي، ما أزال أحاول قطعها... والدي ووالدتي يصرخان معاً بينما خالتي تبتسم وتمدُّ لسانها محاولةً إضحاكي..

إضحاكي

كثيراً ما كنت أضحك حين أرى والدي يحمل (البانسة) ويطقطق بها وهو يشدُّ حبال الغسيل.. الغسيل المتراكم منذ الولادة الأولى. كثيراً ما كان يلعب معي بـ (البراغي والعزق) وكرات الخردق اللاّمعة في محور دوران الدّراجة المتهالكة التي لم ينتهِ يوماً من إصلاحها لكنّه لم يتوقع فشله الثّاني في إصلاحي.

إصلاحي

بعد سقوطٍ شاقوليّ دخلت القطع الحديديّة في صياغة جسدي ذات المفاصل الصّناعيّة حيث (براغي) العظام و(عزقات) المفاصل.. لم يبقَ إلا الآنسة العانسة حارسة جسدي المدبّب بمسمار الطفولةِ المتعبة وفوط القطن الصّناعيّ المميّز..

الوقت يكسرُ داخلي ليرى شظايا العقارب والدّقائق المالحة الماضية في الهلاك الحافظ لرؤية الأشياء:

إنّـهُ يرفـع الأعـلام الباليـة ويشـتري الهـواء بالعملـةِ الممزّقـة ذات الرّصيد الهوائيّ المتهالك حيث (تزرب) العملة المختزنة ولا تشتري حتّى (مسمار كبس).

مسمار كبس

في وحدة البريد تصنع الصّناديق وتفتح أكياس الأرزّ من أجل رشّها على الموتى.. ثم تغلق التوابيت بالمسامير الطويلة التي يدقّها (النّجّارون).. هم ذاتهم يصنعون كراسي الولادة التي تشتريها القابلات حيث يجري (تمليص) الأجنّة التي طالما هتفت الفناء..

كانوا يضمّون أجزائي المختلطة بالمعدن الرّخيص ويلفّونني بالقماش الأبيض المشدود بالقماط الطويل.. لقد كنتُ من أطول الأناشيد في عالم الضّحايا.. الآنسة العانسة هربت.. لم تعد ترى جسدي المباع إلى عائلة جديدة تحترم الأجساد الغضّة في الوطن البديل حيث الحذاء يزقزق في قدميَّ كلما أوقفوني على حاجز الحياة... كنت دائم العري حاضر النوم.. كان وجهي مظلماً مثل (لمبة محروقة) لم تحتفل والدتي القديمة بأسبوعي، كانت منشغلة بالصّراع مع السّاكنة الجديدة التي جعلت وجه أبي يزدادُ شباباً من كثرة الطعام.

لم أكن أدري أيّة صيغةٍ تعجبني.. تُرضي رفضي للأرقام المتواترة للدّنيا المقلوبة والكائن المغلوب

إنّها لعبة الرأس والأطراف	1	2	3	4	5
		يدي اليمنى	قدمي اليسرى	قدمي اليمنى	رأسي

رأسي يؤلمني من كثرة همسات القابلة.. من كثرة التّحديق بالغيمات العابرة لأسرّة الأمطار التي تنتهك الشّجر ما دامت أطرافي تتحرّك دون أن تخدش الفراغ بأصوات الحديد لتبقى زاويتي مخلصةً لسكونها في خطوتي الضّالّة.

الخطوة الضّالّة

كنت دائم التّحديق في الأجساد البلاستيكيّة الفارغة (المانيكانات).. كنت دائم الصّراخ في فم التّمثال عسى روحاً تتشكّل في داخله..

إنّها (المانيكانة) الرّماديّة الباسمة دوماً لنساءِ الشّوارع.. كنت ألهث في (تجميعها) أحاول أن ألفّها بقماش سجني وقماط مشنقتي.

لن يخرج هواء الزّفير بسهولة: فمي على (فم المانيكانة) مسماري على بطنها الناعم، أطرافي على أطرافها المدهونة بالورنيش جسدي ملتصقٌ بجسدها بـ (ملزمة الحديد).

أرى عمري هارباً إلى زجاج عينيها أضمّها في الصباح.

أحاول كسرها في المساء ولا أجد تبريراً لقسوتي..

قسوتي

اسمي رقم ما..

سادسٌ أو سابع أو خامس أو رابع.. ثالث.. ثاني ثانٍ

كانت أشجار الأيّام تلعب في رأسي، تزيدُ غربتي وبحار حطامي، في زاويتي المقهورة جالساً أقصد روحي.. في فلك ظنّي بالقابلة السّوداء بينما الوالدة.. وتنادي:

يا توت يا أحمر يا نبّوت... ما كانت تعرف متى سيأتي ذلك الحوت.

سأحاول أن أتحلل من أعذاري وأنادي أرقام زماني بالمكتوب:

(يا واحد يا دائرة الكون

يا ثاني تعب اللون

يا ثالث حبِّ الأكوان

يا رابع كأس الألحان

يا خامس كعكات الشّيطان

يا...، .،.؟.!...)

بعد الخراب:

تتكاثر الأيدي والأرجل والرؤوس في زحمة الجسد.. وأنا أخرجُ من الصّورة من دون حواس... أوشك أن أدخل بدني وأنا أتضوَّرُ جوعاً مثل السيّارات ومثل قطارات الأحلام المفجوعة... إنهم ينظرون نحوي شاخصين يضربون كفّاً بكفٍّ، ويحوقلون وأنا أمشي مرتبكاً وأدندن... أتهجّى لغةً لا أعرفها... لكنني أغنّي أمام تمثالي العاري.

كعكة الشّيطان

تحتي يزهر الإسفنج الخمريّ.. في عنقي طوق نجاةٍ وضعته القابلة قرب الزّاوية فوق الكرسي وراحت تلعب (الخمسات) مع والدتي التي تركتني في الزّاوية كي تأخذني ملائكة الليل ظناً منها أنّها سترتاح من رقم قد تسبّب للعائلة بالنّحس المتوارث..

..... بعد مساومةٍ وشجار.....

هذي قابلتي قد وعدت أن تأخذني نحو فضاءٍ جديد

أمّي باعتني بقرشٍ مثقوب كي ترتاح العائلة من الشّجن.

عـدت إلى رأسـي المعصـوب... عـدت إلى رشـدي ورشـاد العشـب بأرضي..

أشير لقابلتي أن تأتي من فلك حضيض.. كي تأكل من روحي أو تمضي في أرض صديد زرعت قمحاً أسود ، مثل الشّعر المتراكم حول المسمار الفضيّ ومضت تلعب بحليب الصباح.

يا أرض الرّغبة كم عذّبني هواك المأفون.. كم شرّدني في جنّةٍ تحبّني.. هذا الألم الزّاهي في أطرافي قد ولد الآن..

أطرافي ما زالت تتجمّع في خانة الجسد الزّاوي

حيث الرّفض

حيث الغوص في بحر النّور المكسور

أنا يد الـ

وقدم الـ 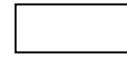

والرّوح تتوازى في الرّأس وبقيّة الأطراف تخضع الآن لأمر القدم المستطيل. هذا أنا الآن وفي كلِّ أوان هذا رأسي

تتناسل الزّاوية في فلك الحس تجمع أجزاء الرّأس ودرجات الميلان في بقيّة الحواس حيث طعم النّور وحسُّ الرّماد في فلك الرّأس المأسور..

حيث الدّماغ الهلاميّ وأوطان العنكبوت وخنفساء السّير نحو الهلام.

حقّاً وصدقاً أنا الآن خائف على يد المرّبع قد يقطعها الوجد.

يدُ

في هذا الصّبح الضّبابيّ قد تحدث المعجزات.. قد ترتفع يد المربع لتضرب الوقت الهارب وتفتح صندوق العقارب لبشاعات الأبراج هكذا نحو اليسار تفتح الرئة بابها ليدخل الهواء المهرّب من عبق الماضي هكذا.. تهرب الرؤيا ويخرج السّر ويبقى الصّندوق المفتوح شهيد الزّاوية حيث يشرق الحاضر الدّائر.

الحاضر الدّائر

منذُ الأزل سيبقى خارج ما يكتبه الحبر النّاثر.. إن الحاضر الدّائر لا يمكن أن يُكْتَبَ بالحبر الحائر، هذا ما قالته الدّائرة لرأسي!

رأسي يتوارى في دائرة الزّائل كي يستوعب هذا الزّمن الغائر في ظلِّ الحاضر.. ما كان لرأسي أن يدخل في فلك الدّبّوس.. لا يمكن أن آتي في ظلِّ غيابٍ لعبوس الظلِّ الباقي.. كان سيصرخ في كفّي في شجر وجودي قد كان القائل:

أنا قبر المعرفة وهواءُ السّريرة ويد المرّبع ومستطيل الطرب.

كانت الرّؤيا تتوازى في الرّوح في ملكوت المتوازي حيث تشيخ الأجنّة وتسجد القابلة وترتعد الوالدة كلّهم.. كلّهنّ في مدى الدّائرة

في أنبوب الحقّ قد دخلوا الآن هكذا كالسّهم قتلوا الغشاوة...

كسروا أنبوب المقعّر هكذا خرجوا إلى فلك الرّنين وأكثروا من البكاء حتّى تعود الفتنة للأنواء.. طوبى لهم... طوبى لهم... حيث

النّطاف الشّهيدة في تجاربهم التي لا تنتهي، إنّهم يحصون الحياة. غبار الطّلع المارق في (البلاليع) السرّيّة والأرقام الآدميّة هي ملكيتّهم في هذا الأنبوب. إنّهم منبسطون في أنبوب الحقّ.. في داخل دائرة السيّطرة يكملون دورة الكبريت. الجميع سيحترق ما لم يدخل في أنبوب الحقّ... ما لم يتحرر من أغصان اللحم.. إنّ اللحم سيفسد.. إنّ اللحم طعام الأرض.

من أوصلني بحر رهائن.. من علّمني أن أدخل في فلك الصّوّان وأناغي الأكوان..

رأسي أفتحه الآن ـــ

يدي أمدّها الآن ـــ

قدمي أمدّها الآن ـــ

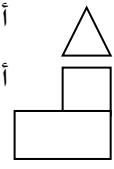

لم يبقَ إلاّ دائرتي سأحاول أن أدخلها أو أفتحها تلك أناي... تلك روحي التي تحاول أن تتوازى في أرض المستقيم؟؟؟

عين منين أيار 2012

أشجارُ محمد

لعبة الخريطة:

كان محمد واحداً من فتيان الحي. في شعره ينمو ليلُ العقيق الأسود. كان له سلوكٌ غريب حيَّر الأسرة.. كان بطنه ملتصقاً بالأرض حينما بدأ يرسم الخريطة على الدفتر الجميل..

قالت له والدته:

يا ولد ضع (البطانية) تحت جسمك ثم ارسم ما يحلو لك.. لم يكن لينتبه، إنّه مستغرقٌ في الرّسم، لقد رسم خريطةً للوطن ثم انتسل عوداً من البخّور وأشعله. تطايرت النجوم وانتشرت وملأت سطح الخريطة.. محمد أخذ يصفّقُ طرباً وينادي أمّه

- تعالي يا أمّي وانظري إن بلادنا مضيئة.

- هيه.. انظر ماذا فعلت! الخريطة مثقّبة، رذاذ البخور أفسد الورق، وأنت تصفّق وتضحك.

لا عليك يا أمّاه.. هذا ديكور سيكتمل فيما بعد "لا مشكلة".

أخذ محمد يزرع الثّقوب بعيدان البخّور وبعد برهةٍ أشعلها جميعاً. بدت الخريطة كقالب الكاتو وبدأ الدّخان يملأ المكان..

وجه محمد بدا كشبح ويضيئه الرّذاذ تارةً ويختفي تارةً أخرى..

والدته تنحّت جانباً وهي خائفة قلبها مقبوض.. قالت:

يا محمد! يا ولدي! العب غير هذه اللعبة أرجوك!.. اذهب إلى غيداء تحت شجرة الصنّوبر..

توجّه محمد إلى شجرة الصّنوبر وبدأ يجمع الحراشف ويضعها جانباً، ثم مسح عنها التراب بكفّيه كأنّه يتهيأ لرسمِ خريطةٍ أخرى..

بدأ الظلام يخيّم على المكان. سحب محمد أخته من جانب الشّجرة.. في البيت غسل لها وجهها ثم مضى إلى غرفته واستلقى على الأريكة رافعاً قدميه إلى أعلى شارداً في خريطةٍ أخرى. ظنّت الوالدة أن محمداً نام فأخذت تشرحُ للأب مخاوفها من ألعاب محمد لكنّه لم يكترث لهذه القصص..

في الصّباح الباكر استيقظ محمد.. ذهبَ إلى اللحّام لجلب طعام قطّته الملوّنة. وبدأ يرسمُ خريطةً جديدةً.. أخذ يزرع حراشف الصّنوبر مكان المدن صارخاً: تعالي يا غيداء، تعلّمي رسم الخرائط، تعلّمي مواقع المدن.. فرحت غيداء وقالت:

-أين مدينة الألعاب؟.

-إنّها هنا...

إنّه صوت أمّي مثل حفيف الشّجر.. أترُكُ الخريطةَ وأَذهبُ إليها..

-رضي الله عنك يا ولدي ضع السّكر في (المطربان) ضع القهوة في مكانها.. ضع.. ضع..

-هل تريدين شيئاً يا أمّاه؟.

-لا.. (تشعر بيدين ناعمتين يلفّان وجهها)..

الآن، الآن سأرسم الخريطة يا أمّي، سألوّنُ البحرّ بالأزرق والصّحراء بالأصفر والسهول بالأخضر الفاتح.. إنّها خريطة جميلة أليس كذلك؟.

صفّقت غيداء وقالت: نعم، ولكن أين بيت القطّة؟.. أين بيتنا؟..

- ضعيه حيثما تشائين.. أنا ذاهب.

يا أمّي محمد رسم الخريطة على جدار الغرفة تعالي بسرعة.. بسرعة..

قالت الأم:

إنّها جميلة، لكنَّ الجدار ليس مكاناً لرسمِ الخرائط، أين ذهب أخوكِ؟!

- لا أدري.. لقد خرج..

تهرعُ الأمُّ إلى الشارع.. لا أحد.. المحال مغلقة.. الأرصفة فارغة.. النّاس في بيوتهم..

تجلس برهةً على عتبة المنزل.. يتراءى لها محمد من بعيد.. ترى كرةً تتدحرج وحيدةً هكذا تطوي الطريق.. تنسى نفسها.. يهبط الليل وتدلف إلى الدَّاخل..

قالت غيداء: ماما.. ماما.. أريدُ اللعب تحت شجرة الصّنوبر.

- حسناً تفعلين

تحت شجرة الصّنوبر راحت غيداء تتلمّسُ حدود الخريطة التي حاول الهواء محوها.. إنّها تعيدها كما رسمها محمد.. تصرخُ بفرحٍ غامر وتركض نحو أمّها تطلب أعوادَ البخور. لأوّل مرّة توافقُ على طلبها.. بينما تعصفُ بالخريطة الريح والغمام والمطر المرّ.

الشَحرور:

الأطفال يتسلّقون شجرة التّوت. إنّهم يجتاحون الأغصان.. من بعيدٍ تبدو شجرةً زرقاء ملوّنة بالحقائب المدرسيّة.

محمد يتمشَّى من بعيد على كتفه (شحرور) دونما قفص وبيده سلحفاة. يرونه. ينزلون بسرعة. تصرخُ (روان): يا إلهي! إنّه عصفور دونما قفص!.. تجيبها (غيداء) إنّه شحرور أخي (محمد)، يلازمه دائماً..

محمد يقف جانباً يحاول أن يتعرّف على (غيداء) وسط جيش من الأطفال..

-تعالي أيّتها الشّقيّة

-لم أتذوّق التوت يا محمد

-ستأكلين فيما بعد هيا..

-بل الآن..

-حسناً أمسكي السّلحفاة جيّداً..

- - - - - - - - - -

على الأرض تمشي السّلحفاة بينما يتجمّع حولها جيش من الأطفال إنّها تمدُّ رأسها بعد أن ألفت الضّجيج بدأت تأكل من ثمار التوت تشاركها غيداء.. الأطفال حولها فرحون.. بينما الشّحرور على كتف(محمد) ينام متعباً من رحلةٍ شاقّة.

اليرقان:

كان محمد صديق الشّحارير.. كان دائم التسلّق على شجرةِ الرّمان إنّه من عشّاقِ الجلنار.. ذات مساءٍ جاء والده غاضباً فهبط من الشّجرة مسرعاً لكنّه لم يتأذَّ..

كان لونه أصفر وكأنَّ يرقاناً مفاجئاً أصابه.. نصح الجوارُ والده بـ(الملا) إنّه خير من يقرأ على اليرقان سرعان ما تضمحلُّ الصُّفرة ويعودُ اللون الورديُّ إلى وجه الفتى..

هيّا يا أمّ محمد أنزلي (الجنطاس) الأصفر من الرّف وأحضري بعض الإبر سآخذها إلى (الملا).

في الطريق حمل محمد عوداً من الرُّمان وبدأ يعبثُ بالشّجر الجانبيّ.. كان الطريق طويلاً بعض الشّيء.

جلس محمد مقابل (الملا) ينظر في وجهه حيث النظارة السّميكة واللحية البيضاء والحاجبانِ الرَّقصان بدأ الخوف يجتاح (الملا) وهو يقولُ في نفسه (إنَّ عينيه زرقاوان لا يمكن أن تنفع القراءة مع هذا الفتى.. ولكن لا بأس.. أبا محمد صديقي وسوف أساعده..).

-انظر في ماء (الجنطاس) يا ولدي. هيّا.. ليس لديَّ وقت..

بدا محمد غير مكترث بكلام (الملا)....

يا أبا محمد على الولد أن يشرب من الماء ثلاث مرّاتٍ في اليوم.. بالشّفاء إن شاءَ اللّه.

من الباب الخشبي خرج أبو محمد يحمل (الجنطاس) وكأنّه يحمل هديّة ثمينة سيقدّمها للوالي.. بينما الفتى محمد عاد إلى قضيب الرّمان أبو محمد على طريق العودة إلى البيت (الجنطاس) يتربّع فوق الطاولة مثل طبق الفاكهة المحنّطة..

أمّ محمد في المطبخ تصرخ:

لا أحد يقترب من (الجنطاس)، دعوه، إنّه لأخوكم محمد..

غيداء تتربّعُ في أرضيّة الغرفة تلاعبُ الدّمى وفي بالها أثواب جديدة لأجلهم. محمد يُنهي رحلته مع الشحارير عند حلول الظّلام ويعود إلى المنزل. تلتقيه غيداء وتشدّه من قميصه.. تقول له:

يا محمد أريدك أن تخيط لي ثوباً لأجل الدّمية فوالدتنا مشغولة بالغسيل وتحضير الطّعام.. أرجوك هيّا.. هاكَ المقص والقماش، سأحضرُ الإبرة حالاً فأنتَ خيّاط ماهر.

-حسناً..

محمّد يمدُّ أصابعه في ماء (الجنطاس) ويخرجُ إبرةً يضمُّ خيطها سريعاً ويبدأ بتحضير الثّوب ناسياً تعليمات (الملا)..

مرَّ زمنٌ قصير أصبح الثّوب جاهزاً..

غيداء تُلْبِس الدّمية الثوب ومحمد يستلقي على الأريكة شارداً. ربما يفكّرُ في خارطةٍ جديدة..

غيداء تصرخ: الدّمية (طفراء) لونها شاحب.. ماذا سأفعل لها يا أخي؟!.

-حسناً ضعيها في (الجنطاس).

غيداء تبدأ بتعرية الدّمية ثمَّ تُلقي بها في (الجنطاس) بينما محمد غارق في الضّحك بدا وجههُ يتورّد بينما الأم تصرخ في المطبخ وتعدُ الأولاد بأقسى العقوبات.

الشّحارير فوق أشجار الرّمان يعلو غنائها.. إنّها تسمع صوت ضحكات محمد صديقها.

المدفأة:

جاءَ فصلُ الشتاءِ مبكّراً على غير عادته.. أشعل محمّد المدفأة الموضوعة في الزّاوية والمحاطة بسياجٍ حديدّي، يشبه سور الحديقة حمايةً لأختهِ الصّغرى، إنّها لا تهجرها، هي صديقتها دائماً في الصّيف كما في الشّتاء. كثيراً ما كانت تفتح بابها في غفلةٍ من (محمّد) وتُلطّخُ وجهها فيصبحُ أسود مثل الليل، فتُحَمّلهُ أمّهُ جزءاً من المسؤولية.. فيكون له نصيبٌ وافر من اللوم.. وعندما يأتي الشّتاء يعود السّورُ الحديدي إلى المدفأة، وتعودُ الأسرةُ لتتجمّع حولها.. نظر (محمّد) إلى النّار ورآها تغيّرُ طلّتها، فقد أصبحت صفراء اللون عجباً ما بها النار، لماذا أصبحت بهذا اللون.. هل هي خائفة؟! لقد ذكرتني بكنزتي الصّفراء. (محمد يسرع إلى الخزانة مخرجاً كنزته الصّفراء).. إنّه يرتديها وكأنّه يُشجعُ فريقاً رياضيّاً، ثم يعود إلى المدفأة ليرى النّار قد غيرّت لونها فأصبحت زرقاء.. في هذا الوقت داهمهُ النُعاس فأغمضَ عينيهِ تاركاً حراسةَ أخته الصّغرى للفراغ.

الخبز:

ـ لقد انقطعت الكهرباء يا أميّ، كم أنا خائفة..

ـ أينَ أخوكِ محمّد؟

ـ لا أدري..

همست الجدّة: الكهرباء مقطوعة كالحبِّ في عصر الظّلام.. كالنّزهات العائلية في عصر الفقراء.

عادت غيداء إلى الصراخ:

ـ أنا خائفة يا أمي، أريدُ طعاماً..

همست الجدّة: هذه عادتنا في نسيان الخبز.. لا حول ولا قوّة ما أكثر ما ننسى.

ـ ألم يأت محمّد بعد؟!. همست الأم.

ـ لا...

عاد محمّد بعد غيبةٍ طويلة بقطعةٍ صغيرةٍ من رغيفٍ يشبه القمر، قال وهو يمضغُ الضّوء: الرّغيف التهمتهُ القطّة.. جارتنا بعد شارعين تأكل المطر.

الساعة:

قالت الجدّة مخاطبةً أبا محمّد:

- يـــا ولـــدي السّـــاعة متعطّلـــة منـــذ زمـــنٍ بعيـــد، ألا تريدُ إصلاحها.

-حسناً يا أمّي أرسليها مع محمّد إلى السّاعاتي.

سـأعطيها لمحمّـد أو لغيـداء ليلعبـا بهـا.. تعـالي يـا غيـداء خـذي السّاعة..

- يبـــدو أنّهـــا فنيـــت بعـــد رحيـــل الحـــاج فـــائق.. لا جـــدوى من إصلاحها.

غيـداء تبـتهج باللعبـة الجديـدة، صـوت الجـرس يجلـبُ محمّـد مـن سـطح المنـزل.. هاشـاً باشـاً، مستأنسـاً بحضـورها، ينظـرُ إلى العقـارب الثلاثـة المتوقّفـة، وبـين الفينـة والأخـرى يقـوم بـربط (الزّنبرك) فيسـمع صـوت المِدَقّة تـذهبُ يمنـةً ويسـرةً، وبسـرعةٍ كـبيرة تجعلُ البصـر يزيـغُ والأذن تطرب. إنّها تُذكّرهُ بصوتِ جرسِ المدرسة حيث يتجمعُ التلامذة وينتظمون في صفوفٍ تشبهُ عقودَ الياسمين.

وقف محمّد عند شرفة المنزل متسائلاً:

آما آن لهذا الجـرس أن يقـرع، لتعـود الحيـاةُ إلى المدرسـة المهجـورة المتروكـة للغبـار.. متـى ستفتحـين أبوابكِ أيتّها المدرسـة.. غيداء بانتظاركِ.

في كلِّ يوم يُقرعُ الجرس لتتجمّع الأسرة حول مائدةِ الطعام..

في كلِّ يوم ينقرُ محمّد على الزّجاج الخارجي وينادي عقرب السَّاعات وعقربُ الدّقائق.. تحرّكا أيتّها الكسولان.. ت ح رر ك ا.. لكن الزمن لا يزالُ متوقفاً في فضاءِ الأسرة.

أبو محمد:

حينما أرقبُ الشّتاء يقشعرُّ بدني أشعرُ ببردٍ مباغت.. أرقبُ دهشة النباتات التي تملأ الذّاكرة وحدي أستيقظُ الآن وأبدأ بتحميل القافلة.. أجهلُ بعض الكلمات أهزُّ رأسي للنّاس.. تخرجُ من فمي ابتسامة متعبة هي نفسها تصافحُ الوجوه.. الأصوات تأتي من بعيد.. النّاس يمارسون حياتهم بينما يبقى محمد خارجاً من أنفاسي التي تحاول أن تتجمّع حينَ يعلو صداحُ والدتي العجوز:

(1) * " شبّاكهم عالغربْ

هواهم عما عيوني

صاّي بزمانن دربْ

إيمت ينطروني "

جاء الشّتاء والأصوات بعيدة.. سكان النّهر يبتعدون.. الضفادع – الاشنيّات.. الأوراق.. الكرات..الألبسة.. الأواني.. مفردات النّار..

شارداً مازلتُ قربَ النّافذة أنتظرُ خيالاً ما.. أحُدّثُ نفسي بحديثِ الأطفال يشتدُّ شقاءُ الرّوح التي تكشفُ ما في صدري من سقم الفراق.. أفضّض روحي بخيالِ محمد الذي غادرني باكراً.. رياحٌ ناعمة تهبُّ على شجرة الحزن تأتي بقبرةٍ ناعمة إنّ لونها جميل ثم يأتيني

صداحٌ آخر إنّه صداحُ جارتنا (أم سعيد) يأتي دافئاً وكأنّها ترقبُ معي خيال محمد:

(2) * " نيّمتك بالعليّة

وخفت عليك من الحيّة

وهزّيلو يا سعديّة

بركي عاصوتك بينام

ونيّمتك بسرير جديد

وخفت عليك من العبيد

وهزّيلو يا أم سعيد

بركي عاصوتك بينام "

في حيّنا النائم هناك.. الثّلج يهطلُ بغزارة يملأ الشرفات والشوارع والأسطح النّائمة بين الحين وصور الحمام..

والدتي العجوز تطوي فخاخ الدّموع وتناديني تعال يا أبا محمد العيد على الأبواب.. عليك تحضير (الأقراص) كيما توزّعها صباح العيد على الأطفال فكلّهم محمد الذي تحب.

الأحلام:

محمد يفتحُ بابَ المراعي يرتّبُ الأحرف كما يشتهي ويورقُ في الأمنيات يسوقُ الخراف حين يفيض العشب الأزرق وتبوحُ به النّوافذ والأبواب الجميع يسمح هسيسهُ فيفتحُ للفرح كلَ النّوافذ ويبدأ الحديث عن كائنات الصّباح الجميلة.. النّاس يشيّدون الأبراج ومحمد يبني منازل للتراب تسكنها الغربة حيث يتشابه كل شيء في مشاهدات الصّمت محمد وحده يصنع مجد المنارات يتنفّسُ في الصّبحِ كما الأحلام.

في الطريق إلى السينما

أمضي في طريقي بين الأشواك اليابسة والبُنّية المهجورة المنزوعة الأبواب والنوافذ. لم يبقَ في هذا المنزل ما يجعله صالحاً للسكن.. أمضي أحاول أن أدوّر الصّور في ذاكرتي. أحاول استحضارهم.. كيما أعيدهم إلى أماكنهم العامرة، إنني ألتقط البقية من رسائلهم.. ألمح ورقة فيها الكثير من الأتربة.. لكنّ حروفها باقية. إنّها رسالة من أخي فايز الدّارس في ألمانيا...

عزيزي فراس:

بقي لي عام واحد وأعود إلى أرض الوطن، انتبه إلى أخواتك (فيروز وفتاة وفرات). تتوقّفُ ذاكرتي لحظة.. أين أنتِ الآن يا فيروز..؟!... لم تكن تعلم يا أخي أنّهن يفقدن أمكنتهنّ الواحدة تلو الأخرى.. ما هذا العام الطويل يا أخي؟ هل استهواك (الدّانوب)؟ هل استهوتك ألمانيا كي تموت على أرضها وأنت لا تزال ترتدي عباءة الشباب. ما كنت تعلم أن (فيروز) في أمريكا تمضي بقيّة عمرها هناك...

أمامي تتراكم الأوراق لقد تركوا رسائلهم هنا. ها أنا أستطلع الرسالة الثانية إنّها هناك بين حطام النّافذة الزجاجية المطّلة على

شارعنا.. حبر الكتابة الفاتحة اللون يُتْعِبُنِي أثناء القراءة، أتلو بصوتٍ مرتفع:

أخي العزيز فراس:" أريد منك تصفية ممتلكاتي في أرض الوطن وإرسال ثمن حصّتي من منزل العائلة مع جزيل الشكر..." أختك فرات.

أمضي في تجوالي داخل المنزل أسمع صوت طقطقة الزجاج، صوت انكسار الهواء تحت قدميَّ. أحاول أن اتلمّس ما يمنعني من البكاء كي أبقى متماسكاً أمام مشاهد الدّمار تبرق في عينيَّ صورة لم تطالها يد التخريب.. إنها صورة أختي فتاة (بالأبيض والأسود) إنها أختي الصغيرة تتجوّل في حديقة المنزل وهي تحمل دميتها المتعبة من كثرة الترقيع..

إنها مختلفة عن بقية الألعاب، لقد صنعتها فطنة أمّي من قمصاننا الممزقة، وجعلت لها عينين من أزرار مريولي في الصف الأول الابتدائي.. هي الآن في (مصر) سأحاول أن أجد رسالة منها..

أمضي في تجوالي داخل المنزل العامر بنسيج العنكبوت.. أدخل إلى الداخل حيث غرفة أبي وأمي.. قذيفة تائهة ثقبت سقفها، دخل إليها ضوء حزين. أسمع صوت سعال أبي ذاك الذي لم تنفع معه كلَّ الأدوية.. أرى أمي جالسة تمسك مسبحة طويلة وملامح الرضا بادية على وجهها. هكذا هي طبيعتها عندما يتوفّر الماء داخل المنزل.. أدخل مثل صبيٍّ غشيم إلى غرفة أخواتي.. أرى ثيابهنّ مخلوطة بالأتربة، أرى ألعابهنّ هادئة.. شؤونهنّ مستكينة.. مرحاتهنّ.. صرخات نجاحاتهنّ هكذا دخلت إليهنّ لم أحمل معي خبزاً أو ملحاً أو ماء..

فرحتُ كثيراً لقيامة أخي (فايز)، كأنه يريد تكملة تحصيله العالي ويحصل على البورد في أمراض الدّم.. أُحسُّ بعودة أفراد العائلة.. كلٌّ إلى مكانه في منزلنا المتداعي.. كلٌّ يحضرُ معه ذكراه.. لقد عادوا إلى أمكانهم الأصلية بعد ميتةٍ طويلة.. عدنا إلى حيّ (الورشة) حيث منزلنا وأبناءُ شارعنا.. عاد سكان الحيّ إلى أمكانهم كما كانوا وأنا الآن بينهم أروي عنهم ويروون عنّي. لقد عدت إلى إلحاحي على والدي أن يأخذني إلى السينما، إنّه يشيرُ إليَّ أن أذهب إلى (أبي جمال اليافي) وأخبره أن يدخلني السينما بالمجّان.. ذهبتُ إلى هناك، دققت الباب، استقبلني ابنه نضال، مشغّل الأفلام في سينما الحرية، لقد عرفني بسرعة ولم تزعجه طريقتي في قرع الباب.. إنه يقبّلني ويدعوني إلى الدّخول فرحاً مستبشراً:

- يا أبي.. يا أبي إنه صديقي فراس ابن الحاج فائق..

- دعه يدخل ليتناول الطعام معنا

- مرحباً يا أبا جمال.. إنّ والدي يقرؤك السلام. يقول لك أن تأخذني إلى سينما الحرّية..

- على العين والراس، سوف تذهب مع ابني نضال بعد ربع ساعة.. نضال سيشغّل الفيلم مكاني لأنني مريض.. تعال يا بني لتناول الطعام...

- شكراً يا عمّاه..

- هيّا، نضال هيّا، يا صديقي الحمدالله على سلامتك لقد تعافيت، لقد غاب عنك المرض، أراك تسمع كلماتي بوضوح، لم تعد بحاجة على سمّاعة الأذن، لم تعد بحاجة إلى النظّارة..

- حسناً.. حسناً يا فراس ستشاهد فيلماً جميلاً (رأس المملوك جابر).

- نعم.. نعم.. سينما الحرية تفخر بهذا الفيلم..

- من حيّ (الورشة) خرجنا معاً أنا ونضال، وبدأنا نسرد سيرة الشارع (هنا جامع الصحن)، هنا منزل (عزو الجعيدي).. سألت نضال: (هل عاد إلى دُكّانه)؟..

- سترى الآن.. إنّها هناك قرب كنيسة (أم الزنار).

- ستأكل من عنده الحلوى حالما ننتهي من السينما

- نضال تذكرت شخصية هامة.. ما أخبار(نيرمين)

هل ماتت معنا؟

- فراس.. لا تذكرني بها.. لا تهيّج أشجاني.. أنت صديقي الحقيقي لقد كنت في جنازتي وزرت قبري ووقفت مع عائلتي.. أنت صديقي الوفيّ..

- نضال: أنت تظلم (نيرمين) لقد تأثرتْ كثيراً لرحيلك لقد تركت المدينة وهاجرت مع زوجها إلى مكان مجهول.. آخر مرة رأيتها كانت تنادي طفلها الصغير المتأخر عنها في المشي.. نضال. نضال. أسرع.. أسرع.. حسناً لا عليك.. هنا كان (أبو الحاج السواس) سنشرب كأسين من السوس. هناك متسع من الوقت قبل البدء بتشغيل فيلم السينما. هنا (حمام السراج):

(أبو ماجد) العتال عاد إلى كرسيّه على باب الحمام مانعاً دخول الرجال... إنّه يوم الخميس وهو مخصص للنساء.. زوجته (أم ماجد)

تجلس في الدّاخل، (هدوان) يسند الحاجة (أم حسن) إنها عجوز مشيتها بطيئة .. تدخل إلى الحمام بينما يبتعد (أبو ماجد) عن الباب ثم يعود هدوان إلى اللعب لقد حصل على خمسة قروش أجرة توصيلها. عاد الشارع يعجُّ بالمارة، ونحن نتفّقد النّاس في طريق وصولنا إلى (شارع الحميدية) حيث (سينما الحرية)، باعة الفول باعة الموالح.. باعة المرطبات.. ضجيج السيارات..

وصلنا السينما حيث زحام الناس، صعدنا إلى (البلكون) حيث غرفة التشغيل، دخلنا.. بدأ نضال بتركيب الفيلم.. (زيق.. زيق) إنّه صوت آلة العرض، أنظر من فتحة العرض الصغيرة أرى الجمهور صامتاً، أنظر إلى الشاشة الكبيرة إنه منظر حيّنا.. إنّه حي (الورشة).. أرى (شارع أسامة) أشاهد الطريق إلى (مدرسة الإرشاد) لقد شهدت طفولتي الأولى. عاد رفاقي إلى صفوفهم عدنا نقرأ (ماما.. بابا.. دادا..) هذه هي (ريتا) الشقية لقد عادت بعد أن قتلها شقيقها بتهمة باطلة.. خلفها يمشي (أبو عمشة) يبحث عن منازل المتوفّين ليتلو آيات الذكر الحكيم ويكسب بعض المال...

ما هذا الفيلم؟ نضال يبدو أنّك أخطأت الاختيار مرة أخرى، أنظر إلى آلة العرض.. لا أرى نضال، إنني أشعر بالخوف.. أشعر بالوحشة هل عاد نضال إلى الموت.. هل انتهت فترة القيامة؟!! الجمهور صامت ما هذا الفيلم يا نضال إنه منزلنا عاد كما كان، تلك العجوز ذات الوشاح البيض هي أمّي تقوم بدقّ اللحمة داخل الجرن الحجري وبقربها جارتها أم شريف تقوم بتحضير البرغل.. إنهم إخوتي.. تلك الفتاة الصغيرة هي أختي (فاتن) لقد عادت من الموت، إنها تلعب (بالحبلة) وسط زحام

الضيوف.. إنها تمطر يا نضال أسمع صوت اصطدام الماء بأسقف التوتياء، لقد جاء المطر مبكراً هذا العام.. أنظر من فوهة العرض تأخذني الدّهشة.. هنا منزل الصيدلي (روحي) إنّه قريبي لم يُسلِّم الدواء لأختي (فرات) المحروقة بالشاي لأن ثمنه ناقص (ثلاثة فرنكات) لقد سارت مسافة طويلة تحت ثلج السماء.. إن أسنانها تصطك.. السماء مكفهرّه وكأنها تذكرت ما جرى. الثلج يهطل فوق كل شيء.. التفاح.. السلق.. الـ... الـ.. (عزّو الجعيدي) في غابة الفرح.. إنه لا يشعر بالبرد لا بُدَّ أنه ينتظر مواكب الأطفال وهي تحمل الورد (إلى كنيسة مار إليان)، لا بد أن الموتى فرحون.. بينما (أبو إلياس) ينظف درج الكنيسة قرب (المذبح).. الثلج لا يعطيه الفرصة.. إنَّه مستمر في الهطل.. فوق الأماكن حتى قباب المساجد تشغلها مساحات البياض.. أين أنت الآن يا شيخ عوض كي تسمعنا صوت أذانك الجميل. هل ما زلت في مشغلك الخاص وأنت تصنع (البُسط) من الألبسة المهترئة.. الفيلم مازال مستمراً، نضال نائم على الكرسي. صوت آلة العرض يزعق، لقد تعبت عيناي لم حتى الآن فيلم (رأس المملوك جابر) لا بد أنّه سيعرض في سينما أخرى.. أنظر من فتحة العرض لا أرى الجمهور ربما دخلوا في الشاشة الكبيرة.. ربما عادوا إلى الموت لا أدري باتت السينما مدهشة، أرى صوراً متحركة ولكنني لا أسمع أصواتاً... أمضي وحيداً نحو الخارج، لا بدّ أن أذهب مرة أخرى إلى (أبي جمال الياسي) لا بد أنه يعرض الفيلم في سينما أخرى، نعم إنها سينما (أمير) الآن تذكرت إنه يعمل في سينما الحرية و(الأمير) معاً ويساعده ابنه نضال. السينما مضاءة، أدلف إلى الداخل أنظر إلى

الأعلى أرى خيالاً لشابٍ وفتاة.. أتنقل بين الكراسي ريثما يبدأ الفيلم.. لا جمهور يدخل إلى القاعة، كأنهم بقوا في سينما الحرية. الأضواء تبدأ بالخفوت.. سيبدأ العرض، هدوان يجرّ الستارة يفصح عن شاشة كبيرة. إنه يقترب مني، يُسلم عليّ بابتسامةٍ ويجلس إلى جانبي لقد أصبح ممثلاً، بينما يتدحرج من الشاشة العملاقة (رأس المملوك جابر) ويملأ الأرض بالدّماء التي تغطّي الطَّنافس الحمراء.

(الورشة): حي في حمص القديمة.

(سينما الحرية): معلم من معالم المدينة أزيل عام 1986.

(الصحن، أم الزنار، مار إليان): معابد في حمص القديمة.

البيضة

زحمة في يوم جديد، استيقظتُ باكراً، أمي وأختي سافرتا إلى مدينة أخرى لزيارة الأقارب.. المنزل فارغ وموحش.. لا أدري كيف تحوّل سروري بسفرهما إلى كآبة وأنا أضع المفتاح في قفل الباب.. المنزل هادئ شعرت بالظلّمة.. رميت ربطة الخبز وعدت إلى الشّارع المؤدّي إلى السوق.. شعرتُ بثقل الوقت.. سرت ببطءٍ إلى أن وصلت الساحة العامّة.. سمعت ضجيج السّيارات وصراخ السّائقين: (عالبيضة.. ماشي عالبيضة.. عبابا نويل.. عبابا نويل.. ماشي عبابا نويل)، قلت هذه مناسبة لأخرجَ من عزلتي، لست طفلاً لأذهب إلى بابا نويل.. حزمت أمري إلى البيضة.. صعدتُ الحافلة، كان معقدي بعكس الطريق.. شعرتُ بأنني أدخل البيضة فعلاً.. الأطفال يتكدّسون وكأنّهم (كتاتيت) يعودون إلى بيضتهم..

الضحك يعلو.. المسؤولة عنهم تجلس في المعقد المقابل.. تبدأ بشدِّ كُمَّيْ كنزتها، وتصلح هندامها بينما أشيح بوجهي إلى النافذة الجانبيّة.. أبدو غير مكترثٍ بمن هم حولي.. توقظ شرودي طفلة صغيرة وهي تخاطب الآنسة: (آنسة – آنسة.. إن معطفك جميل).

أسترق النّظر إلى المعطف بشكل لا يثير الانتباه... حقاً ما قالته الطّفلة: المعطف جميل، هو أزرق اللون مخطط بالأبيض بخطوط عرضانيّة، يبدو كثوب زرافة صغيرة.. طفلة أخرى تخاطبها:

يا آنسة.. يا آنسة الشالة جميلة.. من أين ابتعتها؟ (الآنسة تبتسم)..

مرة أخرى أسترق النّظر إلى الشّالة إنها (سكلمائية) اللون مبرقعة بجزر رماديّة..

(طفلة ثالثة تخاطبها..):

يا آنسة.. يا آنسة عيناكِ جميلتان..

إنّها تبتسم للطفلة وتزمُّ شفتيها منبهّة الطفلة إلى ضرورة الصّمت. الطريق إلى البيضة مازال بعيداً.. الأطفال شبه صامتين، لقد تعبوا من اللعب.. الطفلة التي بقربها تتفحصنّي.. بدأتُ أتثاءب.. وأتثاءب علّها تنام.

السائق يناديني: حاسب يا أستاذ، ناولته نقودي.. الآنسة الصامتة تذكرت عدم دفعها للأجرة.. فتحت حقيبتها على عجل.. فتناثرت محتوياتها.. اضطرت إلى أن تحني رأسها.. الشّالة (السكلمائيّة) اقتربت منّي، بدا دبوسان متقابلان ينتهيان بحبتين من اللؤلؤ.. بدت (شراشيب) الشّالة تهتز وكأنها ترقص.. الأطفال مبتهجون.. أخذني الفضول أن أعدّها.. 1 - 2 - 3 - .... إنها تشبه شلالات نياغارا تنحدر عالية لتصب في نهرٍ واحد.. عشرون شلالاً ينضبطان بدبّوسين يمنعان الشعر أن يجري كقطيع من الماعز الشّامي..

الآنسة عادت إلى جلستها الأولى، أسندت رأسها إلى المعقد الإسفنجي، وهي الآن تغمض عينيها وتفتحهما، هي الآن في طريقها إلى النوم..

(الحمد لله – فكرتي في طريقها إلى النّجاح، عليَّ أن أتثاءب وأتثاءب) (ها.. ها.. ها..) إنها تتثاءب، تفتح فمها الذي يشبه مغارة الكرز، أسنانها البيضاء اللامعة تبدو مصفوفة كعقد اللؤلؤ.. يبدو أنها نامت.. الآن أستطيع أن أتفحص وجهها وأحدّد عمرها.. إنّها في العقد الثالث بلا شكّ..

الطفلة النائمة بقربها توشك أن تسقط على أرضية الحافلة، أتدارك سقوطها، تستيقظ الآنسة، تنظر في وجهي.. فأخاف.. تأخذني الدهشة لبضع ثوانٍ ثم أعود إلى سيرتي الأولى في المعقد المقابل، وجهي إلى النافذة وأحاول أن أبدو غير مكترث بمن حولي..

تباً لي أين عقلي عندما صعدت الحافلة.. كنت شارداً في عدة أفكار ولم أنتبه إلى عينيها.. فيروز تنشد: (مملكتي أنا، قنديل المظلومين والنجمي الوحيدي السهراني بليل الشرق الحزين..) وجهها ينتابه الحزن.. كأنه يريد أن يروي قصة ما.. لكنها تعدّل جلستها وكأن المعقد قد أتعبها من طول الرّحلة.. الأطفال يكشّرون ويضعون المناديل على أنوفهم.. أنظر من النافذة.. المياه الآسنة تجتاح الطريق.. فقاعات المياه تبدو أمامي وكأنها بالوناتٌ سودٌ.. الأطفال يتهامسون (إع.. إع.. كع.. كع..).. الآنسة تبدو عادية كأن الهواء الكريه لا يعنيها.. يبدو أن الرّائحة قد أصبحت واخزة، هي تفتح حقيبتها وتخرج زجاجة زرقاء تنشر العطر في فضاء الحافلة.. الأطفال ينتعشون.. إنّها رائحة طيبة، هي من عطر الهاواي.. (يا إلهي إنها أنيقة في كل شيء.. حتى في اختيار العطر..).

الحافلة تتوقف بشكل مفاجئ.. يبدو أننا وصلنا (البيضة).. الأطفال يقفزون من الحافلة، ينتشرون بية بيوتهم الخَرِبَة.. الحمام يهبط فوقهم وكأنّه على موعد مع زقزقاتهم.. الآنسة تركض وراءهم وتحملهم فرداً.. فرداً وتعيدهم إلى الحافلة.. تبدو من المختصات في أعمال الإغاثة.. هي لا تصرخ في وجوههم.. هي الآن تحصيهم.. لقد انتظم عقدهم..

السائق ينادي: يا آنسة دلال.. هل بقي أحد؟! ترد عليه: (لا.. امشي..).

طفلتان في حضنها.. الثالثة واقفة إلى يمينها تحضن رقبتها.. (الرّابعة) واقفة إلى يسارها.. (الخامس) واقف في المعقد الخلفي.. (السادس) يهمس في أذن (الخامس).. (السابعة) تضع رأسها فوق الشالة (السكلمائية).. إنها تغمض عيني الآنسة، الآنسة تبعد كفيها الصغيرتين بنعومة.. الطفلة الجالسة في حضنها تسأل:

(إلى أين سنذهب..) الآنسة تجيب: إلى (بابا نويل)، الجميع يغني عبابا نويل: عبابا نويل.. (هه.. هه..)، يناديني السائق: يا أستاذ إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى البيضة..

الجميع يضحك بما فيهم الآنسة..

- هل كنت نائماً؟ لقد تجاوزنا البيضة..

- حسناً سأبقى معك حتى تعود إلى ساحة المدينة..

لا حول ولا قوة إلا باللّه..

الانسة تبتسم.. الأطفال فرحون: عبابا نويل.. عبابا نويل. الآنسة تفتح حقيبتها تخرج البالونات.. الأطفال ينفخونها.. إنها تملأ فضاء الحافلة.. الحافلة تسير.. الخراب يملأ الطريق الفارغ.. الأطفال خائفون يلتصقون بالآنسة.. تأخذني الدهشة وأنا أنظر نحو الأطفال تارةً ونحو الطريق تارة أخرى.. الليل يهبط في الخارج.. جدران الحافلة تزداد بياضاً.. الضباب الأبيض يملأ النوافذ.. المكان يزداد دفئاً ووجه آنستي يزداد إشراقاً.. يبدو أننا عدنا إلى البيضة.. عدنا إلى رحمنا الأول.

بنت البيضة

هذه الموظفة غير مبالية، لقد (شحورت) هويّتي أثناء التصوير، ماذا سأفعل، حقاً أنا حائر.. هل أشكوها إلى السيّد المدير، أم ماذا أفعل!؟

قال لي صديقي (أبو لمسة):

- أخبر معلمها أبو رزوق.. إنه مدير صارم.. ليس عنده مزح، ولا مجال عنده للواسطة.. أنا متأكد.. ما عليك إلا أن تقدم طلباً. هيا اضرب الحديدة وهي حامية.. الجرار بقربك، أسرع وناولني ورقة بيضاء هيا..

أناوله ورقة بيضاء فيأمروني:

- هيا اكتب:

نحيطكم علماً أن الموظفّة الآنسة دال.. قد..

ينظر في الورقة:

- أرني ماذا كتبت..

إنه كلام فارغ.. اكتب اسمها كاملاً هيّا.. (قال دال قال..).. يا أخي أنت ضعيف الشخصية، اكتب من جديد.. كن جريئاً، هيّا.. اكتب ما سأملي عليك: السيد المدير. ع/ط رئيس القسم:

[نحيطكم علماً بأنّ الآنسة –دلال بنت البيضة قد (شحورت) هوية العامل (حمدين أبو خرطوم) عمداً أو قصداً وعن سابق إصرار وترصّد و...

يرجى إحالتها إلى (أبي كلبشة) لإجراء ما يلزم.. وشكراً].

ثم أضاف:

- هيا أسرع وضع الورقة في البريد..

دخل صديقي إياد أبو عيطة:

- ماذا هناك؟ .. ما بالكما...

- المسكين (تشحورت) هويته..

- أرني:

(أف.. أف.. أبو كلبشة، دفعة واحدة.. شو قاتلي قتيل.. بتصير بأرقى المؤسسات.. آلة التصوير خربانة.. ما ذنب دلال.. عيب عليك يا حمدين..).

امسح هويتك من (الشحوار يمشي الحال.. فرطوها سيرة..)

- مشورتك ممتازة يا إياد.. سأغادر إلى البيت وأغسل الهوية بالغسالة الأتوماتيكية.

- مجنون أنت..

امسحها مسح.. شوي شوي.. (وشوويش).

ذهبت إلى البيت في نهاية الدوام، كنت في عُجالة.. وبدأت أمسح سطح هويتي.. (يا ربي دخيلك)..

لقد انمحى رقمي الوطني، من أين سيأتون لي بالرّقم. ما هذه البلية؟.. ليس لي إلا أبو لمسة، غداً سأذهب لتبديد المصيبة.. أمضيت ليلة لـيلاء لم أمضها منذ سنوات.. قبل صياح الديك ذهبت إلى المؤسسة، كان أبو لمسة مناوباً.. أسرعت إليه ماسكاً خصره: اُنظر يا صديقي، انظر لقد انمحى رقمي الوطني..

- يا بني آدم هذا ليس الرقم الوطني.. هذا رقمك في الورق.. هناك بعض (الشحوار) عند اسم الأب وبعض الشحوار عند اسم الأم.. شغلة بسيطة..

- ناولني العلبة الصفراء من على الرّف وسأحل لك هذه المشكلة....

انظر يا فهمان... انظر:

اسم أمك بات واضحاً (شر.. شر.. شريفة) لكن اسم أبيك ممحي بعض الشيء، شغلة حرف، حرفين، على أية حال اسم أبيك معروف من دون هوية.. لا عليك.. لا عليك..

غداً سيأتي الخطاط غسان ويحل المشكلة، ستعود هويتك مثل الفلّ..

بدت الهوية بعد الإصلاح غير نافعة في شيء، لقد بدت مختلفة عن بقية الهويّات وأنا ادعو الله أن يأتي إياد، من المؤكد أن حلاً ما عنده..

إنه قادم، وأنا أسرع إليه:

- يا إياد انظر ما آلت إليه هويتي، هل أقدّم طلب استبدال..؟!!!

- شو، والله (بيلعنوا أبو أبوك).. قدِّمْ بدل ضائع..

- حسناً سأعمل بمشورتك..

بعد عام ونيف حصلت على هويةٍ جديدة فيها كل الألوان، (شغلة فلّ) قريباً سأصبح مسؤولاً كبيراً، باركوا لي.. ولكني نسيت تصويرها..

ذهبت تواً إلى دلال بنت البيضة.. ناولتها الهويّة.. بَطَحَتْها في أعلى الآلة.. أنزلت عليها الغطاء.. خرجت من الطرف الأخر مليئة بالشحّار ولكنها من دون معالم، لم ألمح فيها اسمي أو اسم أبي أو اسم أمّي شريفة..

لعبة قصّة

- 1-

تحت ضغط الفقر

تحت ضغط الخوف

خرجت صرخته المكتومة وقال:

لا...

اجتمعت كل شرطة العالم وجاءت لأخذه..

في تلك اللحظة شعر بأنه مواطن هام وهام جداً

- 2-

النبلاء يرونَ بوضوح اللقمة العالقة في حلوق النّاس كيف لم يرها العسس.. كيف تركوها تدخل في بطونهم بالمجّان...

- 3-

في كلّ صباحٍ أقف باستعداد.. رأسي شاخص إلى السماء وأنا أردّد الأغاني الجميلة للوطن، ولكنّ المستمعين لي يبكون في كلِّ مكان يهمسون في ذواتهم نعم.. لا.. نعم.. لا.. إنهم يعرفون الكلمات فقط ولا يعرفون عجلة التاريخ...

- 4-

الواقع الافتراضي المعزّز بالرائحة يفترض أن هناك شعباً يحبُّ الصلصة المكونة من الخيار والبندورة.

إنه واقع جديد يطبخ بالحليب، لا أظن أن أحداً ما يجرؤ أن يأكل هذا الواقع.

- 5-

الناس الرّاغبون في التغيير لا يجلسون في المقاهي والنّوادي.. وعليهم أن يتوجّهوا إلى صناديق الاقتراع ليضعوا ورقة بيضاء.. هي ذاتهم ونواةُ أكفانهم.

- 6-

الولادة مؤلمة جداً ولكن لابد منها ليستمر نسل آدم وتفرح حواء بخيبتها الجديدة.

طُرفة

الطّرفة التي يؤلّفها العامة عن المسؤولين، تسري بينهم سريان النار في الهشيم، الناس يضحكون ليلاً ونهاراً، والمسؤولون يبحثون عمّن أشاع الطّرفة بينهم، كمن يبحث عن إبرة في كومةِ قش.

لعبة القمر

لاعب رأى القمر في ليلة منتصف الشّهر.. قال إنه كرة والسماء شِبَاك والأرض مرمى..

رآه طفلٌ صغير كان يقف إلى جواره.. أشار إليه وقال: إنه لاعبٌ كبير بحجم الشّمس الخائفة من الشروق في يومٍ جديدٍ للمهازل...

لعبة الشّاعر

جلس الشّاعر أمام المرآة مستغرباً ما جرى..

كان الشاعر الغريب بحاجة إلى لغة أخرى ليتفاهم مع العصافير والرِّياح الغريبة التي تهبُّ على جهة القلب.. أصابه ألم ما وأغفى

لعبة الرأي

فئران الأزمات دائماً يرفعون الأسعار، والمواطن المتعب يجلسُ في المقهى، ويطلب الإسعاف حيث الأدوية التي فقدت صلاحيتها في تسكين العقول.. الحكومة وحدها تضرب المواويل، والشّعب المسكين يصفّق حتى تنتهي موجة (الفوبيا)

لعبة الرأي الآخر

السفينة المسكينة لن تمخر عباب البحر لأن المياه جفّت ولم تعد كافية لزجاجة الرضيع.. الرّضيع الذي أحبَّ البحر والأسماك البلاستيكية لن يحتج مرّة أخرى

(بَرَّاكيّة) أبو اليمن

قرّر أبو اليمن أن يفتح برّاكيّة[لخ] في المريخ، بضاعته كانت من مختلف الألبسة وثياب البحر والخواتم و.... .

نشر بضاعته في مكان لا يراه أحد، بعيداً عن أعين موظفي البلدية الذين لم يتركوا حلالاً أو حراماً إلا فعلوه بحجة تطبيق القانون، والقانون في عُرِف الناس آلة موسيقية يستطيع كلّ الناس العزف عليها، لأن ألحانها في غاية السهولة، سَكِرَ أبو اليمن لأنه لم يرَ زبوناً واحداً يشتري منه، أخذته سِنَةٌ من النوم، كائنات فضائية تلبس البنطلون، هبطت من كوكب آخر وحوريّات تلبس الثّياب التي يبيعها أبو اليمن، وتشتري الأقواس وربطات الشعر، حينها أدرك أبو اليمن أنه قد مات، وبدأ أهله يدفعون نفقات نقله من الفضاء إلى قريته حيث يُوارى الثّرى.

---

(1) البَرّاكيّة: كشك صغير من ألواح التّوتياء.

الشعب المجهول

"إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة"

"إذا الشعبُ ضاق بلقمةِ أطفالهِ تشهىّ الوفاة"

هكذا فهم (أبو اليمن) صاحب (البسطة) حقيقة ما يجري بين الحكومة والشعب. سحب من سيجارة الشرق آخر سحبة ورمى بها بعيداً وقال: - لقد وجدتها..

ليس هناك أحرف مشتركة بين الحكومة والشعب هما كائنان منفصلان.. حاولت (أل) التعريف الجمع بينهما ولكنّها فشلت، ولما سُئلت الحكومة عن الشعب: كيف حصل بينهما الاتّفاق؟

ردّت بكلِّ وقاحة: إنّه من أجل الإعلام فقط... مرَّ زمانٌ طويل من الجدال، فقدت فيه الحكومة (أل) التعريف وبقي الشعب مجهولاً كعادته!

نظريّة التّفريغ

رزق أبو اليمن بثلاثة أولاد وعانى ما عانى ولقي ما لقي في عذاب يومي بين الدوائر الرسمية، فقرر تفريغ أحدهم من أجل معاملات الدولة، وكانت خطته ناجحة، حيث حرم أحدهم من التعليم في سبيل تعليم بقيّة الإخوة، لأن قصص الدولة تكاد لا تنتهي حتى تبدأ (غاز – كهرباء – ماء – مازوت) أحلام دائمة ولهاث مستمر ولم يضيّع تعب ولده (يامن)، فقد سجّل له كامل ملكيته للمنزل لقاء حرمانه من التعليم.

مرَّ زمانٌ.. (مات أبو اليمن)، وتمنّى بقيّة الأولاد المتعلميّن أن يكونوا مثل أخيهم (يامن).

شاهدةٌ لقبر المُلْحدِ

سيّارات سوداء النوافذ تسير في رتلٍ طويل.. لا صوت لآياتِ الذّكر الحكيم، ولا صوت لتراتيل، ليس هناك ما يدلُّ على معتقدات الميّت..

وكان من عادتي الخروج في جنازات النّاس أيّاً كان معتقدهم.. هكذا عادتي مشاركة النّاس أحزانهم، لقد ورثتها عن أبي وجدي...

إنّ الميّت شخصية بارزة. إنّه (فريّ أبو الفريّ) زعيم (حزب الأموال) تأخرّ وصولنا إلى المقبرة بسبب الازدحام، لم أسمع كلمة واحدة تخصّ المناسبة، وهذا غريب. في كلّ الديانات السماوية يقولون: (يرحمه اللّه) لم أسمع كلمة رحمة واحدة.. (ربما يكون مادّياً) أقول ربما بَدَت عليَّ ملامح الحزن فللموت رهبةٌ وخشوع..

كنت أسمع بكاءَ رجلٍ واحد، إنّه يذرف الدّموع (حفَنَات) إنه يبكي برطانة، يبدو أنّه أجنبيّ، مراسيم الجنازة مستمرة والتابوت ينزل في القبر، طلقات الرّصاص تلعلع في الجو.. تقدّم أحدهم شاكراً للرجل الذي يبكي بشدّة، وقال بالعربية الفصيحة:

- (شكراً لفلوف أبو اللوف) ستحمل الأمانة من بعد الفقيد..
- لمحني حفّار القبور (أبو شام) وقال مُرَحِبّاً:

- أهلاً (أبو الفوارس) ولكن ما الذي تفعله هنا؟!

- إنّني أشارك في الجنازة..

- قال ممازحاً – هل تريد لسيدنا (عزرائيل) أن يفطن بك

- ...

- حسناً. تعال ساعدني في أمور القبر، فأنت معلّم بناء، والجنازة تستأهل

- نعم، إنّه الزّعيم (فريّ أبو الفريّ)، خسارة كبيرة للمطاعم والحانات والتجارة العالمية...

- بدأ الجمع بالانفضاض، وبدأت السيارات تعود أدراجها..

بعد ساعتين أصبحت تشريفة القبر جاهزة. بدا القبر كتلة من الرخام الأبيض...

قال أبو الفوارس: يا أبا شام ماذا سنكتب على الشّاهدة؟ الفقيد لم يكن يقتنع بقبورنا أو بأسمائنا أو بعبادتنا للإله الواحد

قال أبو شام: - (بحفض)..

ردّ مساعده الحموي أبو بسام: - (عنفص إلى جهنم)

- يا أبا شام. يا أبا شام. للميّت حرمه، ليس هذا وقت التهكّم كلُّنا إلى زوال.

استمر أبو بسام في غيّه وقال مخاطباً إيَّاي:

- اكتب على الشَّاهدة (اللّه لا يردّهُ)

تأخر الوقت وبدا الظلام ينشر خيوطه في المقبرة.

قلت مخاطباً أبا شام: - إنّه (ماديّ) لا يعترف بوجود الخالق ماذا سأكتب على الشّاهدة؟!

- خلِّصني، أريد أن أذهب، لا أريد أن أنام هنا، يا أخي اتّصل بأقاربه وقل لهم ماذا سنكتب على الشّاهدة ربما يكون عندهم وصيّة.

- نعم سأتصل الآن..

يسرع إلينا أبو بسام وليس معه إبريق الشَّاي الذي ننتظره خاطبنا مسرعاً:

- انظرْ هذا الظَّرف، لقد كان بين أوراق الميت واعتقدت أن بداخله نقوداً إضافية (حسنة على روح الميّت) أُخرجُ الورقة من الظرف وأرى شكل القبر في الوصية (إنه يشبه إلى حد كبير حذاء المرأة كان لا بد من هدم القبر وإعادة بنائه حسب الوصية، والشَّاهدة يستحي القلم من وصف شكلها.

رسائل إلى عالم آخر

1

تنكة في رأس الحمار

كان لي قطعة أرض شبيهة ببستان أزرعها في كافة المواسم... وكان بقربها بستان صغير يملكه جاري (أبو جزرة).

يا أبا جزرة: كم مرة قلت لك أن تكفَّ حمارك عن أرضي..؟ إنَّه يأكل تعبي وأنا أنتظرُ الموسمَ بفارغ الصَّبر....

يا جاري... يا عزيزي... أرجوك إنَّها المرَّة الثالثة... لقد التهم حمارك شتلات الخيار والبندورة ولم يُبقِ على شيء منها و أنت هكذا غير مبالٍ... باللّه عليك ماذا سأفعل؟ إلى من سأشكو..؟!!

- هوِّن عليك سأربطه هذه المرَّة... تكرم عينك يا جار... اللّه أوصى بالجار و لو كان....

لم أكن أريد سماع كلامه.. إنّ مُزاحه ثقيل... وأنا في بَليَّة....

مساءً عدت إلى منزلي:

استقبلتني زوجتي (فايزة) هاشَّة باشَّة..

- كيف زرعنا يا أبا حاتم ..؟

لقد التهم حمار أبي جزرة كلَّ الموسم... اليوم مساءً تفقدت (الزّرع) لقد أتلفه الحمار بالكامل...

- قل لأبي جزرة أن يضبط حماره.

- إنها المرَّة الرَّابعة يا زوجتي.. لا فائدة من الكلامِ معه... يجب أن أتدبَّر أمري مع الحمار...

- كيف ؟!

- لا أدري.. أسعفيني بفكرةٍ تبعد عنِّي الضَّرر.. إنَّ الكلام مع أبي جزرة مضيعة للوقت (تطنيش) كامل.. لقد طلبت من صديقه الحداد أبي عمَّار أن يُساعدني في إقناعه و لكن لم أستفد شيئاً... لقد قال لي أبو عمَّار:

- أبعد الحمار عن أرضك بشتى الوسائل ..

- كيف؟!

- قال لي: أدخل رأس الحمار في تنكة واربطها جيداً من حقِّك أن تحمي نفسك يا مسكين..

في الصَّباح صعدت إلى السَّقيفة و أنزلت تنكة قديمة فتحتها وحملتها معي إلى البستان، ثمَّ ألبستها رأس الحمار ...

في المساء جاءتني الشَّرطة و أخذتني إلى المخفر:

- يا سيدي ! الحمار أتلف أرضي و أبو جزرة غير مبالٍ... إنَّها المرَّة المائة التي يجتاح فيها أرضي...

ردَّ عليَّ الشُّرطيُّ:

- لقد ارتكبت جريمة بحقِّ هذا الحمار المسكين .. وغداً ستُحال الى القضاء ....

أمضيتُ الليلة في الزنزانة الباردة بينما ذهب أبو جزرة إلى منزله ونام بقرب زوجته...

لقد حكم عليَّ القاضي بالسَّجن (ستة أشهر) بجنحة (أسر حريَّة حيوان..) .

صرختُ في وجه العدالة وكان صوتي عالياً :

مواسمي التي أُتْلِفَتْ من يُعوِّضُها عليَّ؟ ...أبو جزرة و حماره يتجوَّلان في الهواء الطَّلق ، وأنا أمضي فترة سجني في القاووش البارد.... كيف لهذه العدالة أن تتحقق...؟

لا بدَّ أنني أخطأت ...لقد كان عليَّ أن أُلبس هذه التَّكة رأس أبي جزرة.. حقاً لقد أخطأت....حقاً وصدقاً لقد أخطأت ...

2

غريزة

جلس(أبو القنابل) بعد أن دمَّر المدينة ليرتاح من أهلها..

التَّدمير هائل وجميل... حقَّاً إنها بطولة لم أكن أتوقعها لولدي ال ت ن ت ... لقد تطاير جسده في الهواء... حقاً إنه ولدي وأنا فخورٌ به، هبطت(أمّ القنابل) بالمظلَّة وهي تتمايل يمنة ويسرة لتنفجر فوق كامل الأرض.....

بعد انطفاء الحرائق وصمت البشر واحتراق الحجر... فطنت (أمّ القنابل) إلى اختفاء ولدها ال ت ن ت ...

جلست تنوح وتلطم.. بقي جسمها في الحفرة العميقة حيث صارت مستودعاً للأفاعي.. خرجت من الحفرة حيَّةً تسعى وتبحث عن أبي القنابل لتقدِّم له العزاء وتبحث له عن زوجة ثانية.... غضب ال ت ن ت وقام يبحث عن أبيه ليعيد الكرَّة ...

3

كلمة أخيرة

جلس (العام) في منزله ينتظر (السَّنة)... دقَّت الباب فلم يفتح لها دقَّت مرة ثانية... وثالثة... ورابعة... ظلَّ (العام) جالساً على الكرسيِّ يتذكَّر ويتذكَّر ويتذكَّر...

كسرت السَّنة الميلاديَّة الباب ودخلت.. بدا (العام) متكئاً على عصاه.. هزَّته قليلاً فسقط ..

بدأت بالصُّراخ و النَّحيب ..همَّت وهمَّت أن تستدعي له طبيب الزَّمن...

مسرعاً دخل (الزَّمن) وقال كلمتَه الأخيرة :

لقد مات (العام) يا سيَّدتي (السَّنة)...

من فورها أضاءت الشُّموع وتبرَّجت وهي تنتظر (عاماً) آخر...

4

دولة واحدة

في بدء الخليقة حصلت مشادّة كلامية بين (آدم وحوّاء)

أدت إلى الانفصال ..يومها وقف الشَّيطان على الحياد..

بعد الانفصال تقاسما موجودات الطَّبيعة ومضى كلٌّ في سبيله...

- وقفت حوّاء أمام المرآة... نظرت إلى وجهها الجديد و لأوَّل مرّة شعرت بأنها (ملكة) وزوجها السَّابق (عبد) للتوِّ أعلنت قيام دولتها... رسمت خريطة لجسدها ونامت....

- زوجها آدم وقف أمام المرآة، نظر إلى وجهه أحسَّ أنه (مَلك) ورسم لجسده خريطة، وانتظر حتى الصَّباح ليعلن عن قيام دولته....

- الشَّيطان لم يكترث بما يجري ، طالما أن مؤونة الحبِّ قد نفدت و ضاعت بينهما...

- احتجَّت الملائكة على توقُّف إنتاج البشر وبدأت تدعو إلى الدَّولة الواحدة....

5

ساعة

هذه السَّاعة لا فائدة ترجى منها.. لقد أخذتها إلى ورشة التَّصليح مراراً وتكراراً وفي كلَّ مرَّة يقولون لي:

- إنَّ السَّاعة أصبحت مضبوطة.. لقد غيَّرنا العقربين والماكينة والبطَّاريِّة..

السَّاعة بقيت على حالها.. يعود زمنها إلى الوراء في كلِّ يوم (ربع ساعة) ولم أجد تفسيراً لما يجري في هذه السَّاعة..

ربما كانت مقولة زوجتي صحيحة:

- (إنها تريد العودة إلى الزَّمن الجميل...)

6

الأقصى

صاح المنادي: إنها فرصة.. إن من يمت من أجل الأقصى يكسب ويربح....

هبَّ المقدسيُّون من كلَّ حدبٍ وصوب يتهافتون على الموت....

بينما تزاحم أصحابُ الشِّعارات اليوميّة يبحثون عن أخبار الفنَّانات والفنَّانين ويبثُّونها أخباراً عاجلة صارخين:

يا حبيبي...يا حبيبي.. (إنت الحب الكبير..)

جلسوا يسكرون حتى النَّصر..

القلَّة القليلة منهم بدأت بتحضير الأطعمة من أجل مواساة أسر الضَّحايا والشُّهداء كما يحبُّون أن يسمُّوهم وهذا أقصى ما فعلوه...

7

محاولة للسفر

غداً سأسافر إلى الخارج وسأعيش في بيئة صحِّيَّةٍ وسأتفوَّق على الجميع...

سافرت إلى هناك ومنذ اللحظة الأولى داهمني الحنين وارتفعت درجة حرارتي إلى المئة... بتُّ أغلي وأنا أنتظر العودة إلى هنا ... قائلاً في نفسي:

لن أسافر....

لن أعيش في بيئة صحيَّة....

لن أتفوَّق على أحد ...

سأعيش هنا...

وحال وصولي عادت حرارتي إلى الدَّرجة العاديَّة وبدأت أحبُّ كلَّ شيء هنا.....

8

مرور الفاكهة

عندما مرَّت (الجميلة).....أغلق بائع الفواكه محلَّه... ليرى فاكهة الجنَّة بشكل شخصيّ تمرّ عبر الطريق

الطويل.....

في اليوم الثاني أتلف بائع الفاكهة صناديق الدُّراق والمشمش ورماها في الطريق ..

تعثَّر المارّون وسقط معظمهم وهم ينظرون إلى دكّان الفاكهة، وهم يتذكرون الأنثى الجميلة التي مرت البارحة في الشارع الخالي من إشارات المرور اللامعة حيث العيون التي لا تتوقّع الفرح..

الأنثى السَّابقة كانت تسير وتتساقط من جيوبها الأقمار والناس المارون ورائها يتكوَّرون مثل كرات للدُّحل...لا يملكون الكثير من الخطوات... هم يخافون أن ينفلتوا من مدارها وهي تحاول ربطهم... الأنثى التي مرت نفسها تلتفت ذات اليمين و ذات اليسار خائفة من قطار ما... من بسمة طائرة... من قبلة لا تجد فماً.. من جواد شارد لا أحد يمتطيه ...حقاً إنه شارع جميل مثل بحيرة مقامة على حبٍّ قديم...

هي الأنثى التي نامت على ساعد الشارع وتركت بعضا من حلمها الغارب لإسفنجة الليل.... وتركت بعض الحكايا للناس الذين يمرون في الشارع....

9

نافذة على الأمنيات

كان يحلم أن يدخل في (السلك) ظلَّ يحاول ويحاول..
لقد وجد ممانعة كبيرة من أبويه و أشقائه...
لكنَّه أصرَّ على الدخول في السلك ليحقق رغبته..
وعندما دخل أحضر صورهم وبصق في وجوههم...
لقد صفَّق له الجميع...صفق له كل من دخل في السلك...

10
حكاية البطلة

كانت المعلّمة بطلة المدرسة الوحيدة.

جميع التلاميذ يغنّون لها ويصفّقون... مرَّ زمان طويل وهم على هذا المنوال....

الجميع يغنّي لها ويصفق إلى أن أصابهم الملل... صرخوا معاً... عاشت البطلة...

صرخت في وجوههم وتشاجرت معهم...

دخلت في معركة حامية...

تشابكت في أسمائهم وخسرت بعض الحروف...

جاء من يحلّ المشكلة... ويجعل الأطفال سعداء وهم ينشدون:

البطلة.. البطلة.. البطلة

صرخت.. صرخت.. صرخت

سقطت.. لام.. الفجرة

فوق.. رؤوس.. الطلبة

البطّة.. البطّة.. البطّة

من يطعمها الآن ويصفّق....

11

صفقة القرن

النائب شديد النعومة كان جالساً على كرسيه في المكتب بعد أن أتمَّ تهجير السكان وصارت المدينة مسرحاً للفوضى....

بدأ يرتشف الشاي والقهوة معاً ويزمُّ شفتيه ويحرّك رأسه مثل الحردون...

وبعد فترة طويلة نطق قائلاً:

- لا خيار غير الحوار....

وبدأ يضحك... ويضحك.... ويضحك... وقد أنجز مهمَّته القادمة من الخارج، ثم أضاف:

- الآن في كلِّ أوان وحيثما توجد (آن) ...سيختلف المجتمع على أيّ اسم يُطرح مكاني....

12

نشرة

في النَّشرة الصباحية: سقطت المدينة...

في نشرة الظهيرة: عادت المدينة..

في النشرة المسائية: كانت المذيعة تصرخ مثل طفل حديث الولادة وتخبط بيديها ورجليها...

هرب المستمعون بعيداً من شدة الخوف وأخفوا رؤوسهم تحت الطاولات حتى غادرت المذيعة حاملة في حقيبتها الضمير المتصل بالمدينة وبقي الفعل (سقط) ينتظر مدينة أخرى كي تسقط.....

تعريف مختصر بالكاتب

- فراس فائق دياب من مواليد حمص ـ سورية ـ 1965م.
- عضو اتحاد الكتاب العرب ـ جمعيّة الشّعر.
- **صدرت له المجموعات التالية:**

1 -رماد القمر.. حنين الشجر، شعر، اتحاد الكتاب العرب 2006.

2 -خيال المومياء ـ شعر ـ اتحاد الكتاب العرب 20089.

3 -البكاء بربع صوت ـ شعر ـ وزارة الثقافة 2008.

4 -حين أدعو الفضاء منى ـ شعر ـ وزارة الثقافة 2010.

5 -مقبرة لوركا ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب 2010.

6 -لهيب التوت ـ شعر ـ اتحاد الكتاب العرب 2012.

7 -احتراق ساكنة العنب ـ شعر ـ اتحاد الكتاب العرب 2013.

8 -من تداعيات أبي البقاء الرّندي ـ شعر ـ اتحاد الكتاب العرب 2015.

المحتوى

الإهداء 5
المُهر الهوائيّ 7
لعبة عشتار 33
الهروب إلى البرتقال 44
أبناء بردى 77
الظّلّ الأخضر 89
الإحصاء 95
ولادةُ التُّوت 105
أشجارُ محمد 117
لعبة الخريطة 119
الشّحرور 122
اليرقان 123
المدفأة 125
الخبز 126
الساعة 127
أبو محمد 128
الأحلام 130
في الطريق إلى السينما 131
البيضة 138
بنت البيضة 143
لعبة قصّة 147

لعبة القمر 150
(بَرَّاكيّة) أبو اليمن 151
الشعب المجهول 152
نظريّة التّفريغ 153
شاهدةٌ لقبر المُلْحدِ 154
رسائل إلى عالم آخر 157
تنكة في رأس الحمار 159
غريزة 162
كلمة أخيرة 163
دولة واحدة 164
ساعة 165
الأقصى 166
محاولة للسفر 167
مرور الفاكهة 168
نافذة على الأمنيات 170
حكاية البطلة 171
صفقة القرن 172
نشرة 173
تعريف مختصر بالكاتب 175

أقحوان الملائكة.../ فراس فائق دياب. – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2021. – 178ص؛ 20سم. – (سلسلة القصة؛ 3).

1 – 813.01 د ي ا أ 2- 813.009561 د ي ا أ
3 – العنوان 4 – دياب 5- السلسلة
مكتبة الأسد